

المدارس الاسلامية

ودور العلم وعمارته الاثرية

نشأتها وتاريخها وتخطيط عمارتها

بقلم الدكتور عباس حلمي كامل

تمهيد :

الاسلام ولاشك دين العلم والثقافة والفكر والمعرفة . فقد عنى الدين الحنيف بالعلم وتكريمه والدعوة الى تحصيله ، واولى آيات القرآن الكريم عن العلم والتعلیم (١) . ولا يزال الاسلام يحض على العلم ويدعو اليه في آيات كثيرة عزيزة كما في قول الله تبارك وتعالى : (الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان) (٢) . وفي آية أخرى كريمة (وقل رب زدني علما) (٣) . ويمجد الاسلام العلماء ويميز بينهم وبين غيرهم ، فيقول الكتاب العزيز : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (٤) ، فالعلماء اكثر الناس فهما لاء الله ووعيا لآياته وتمثلا لبديع قدرته ، (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) (٥) وقوله تعالى (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم) (٦) . وكلما ازداد المرء علما كلما ازداد قربا الى الله وخشية له (انما يخشى الله من عباده العلماء) (٧) . وكذلك يخاطب الاسلام العقل ، ويحض على التفكير في خلق الكون ، والوصول ما استطاع الى شواطئ المعرفة ومراسي العلم ، وقد اشتملت الكثير من الآيات على هذه التوجيهات السامية (٨) . هذا ويذكر المولى عز وجل في محكم كتابه الحكمة والعلم من النعم التي تفضل بها سبحانه وتعالى على رسوله الكريم (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم) (٩) .

وقد جاءت اقوال وافعال الرسول صلى الله عليه وسلم مطابقة لما ورد في القرآن الكريم من تكريم العلم والحض على طلبه وعلى تعلمه وتعليمه ، فلقد اوصى الرسول عليه الصلاة والسلام كل مؤمن رجلا كان أو امرأة بطلب العلم وجعل من ذلك واجبا دينيا .

-
- ١ - العلق : الآيات ١ - ٥
 - ٢ - الرحمن : الآيات ١ - ٤
 - ٣ - طه : الآية ١١٤
 - ٤ - الزمر : الآية ٩
 - ٥ - العنكبوت : الآية ٤٣
 - ٦ - آل عمران : الآية ١٨
 - ٧ - فاطر : الآية ٢٨
 - ٨ - الروم : الآية ٢٢ - آل عمران - الأيتان ١٩٠ - ١٩١ - البقرة : الآية ١٦٤
 - ٩ - النساء : الآية ١١٣

وكانت افعال الرسول صلى الله عليه وسلم تطبيقا واضحا لارشاداته - وكذلك كان الصحابة انفسهم شغوفين بسماع الرسول والاخذ عنه وكانوا يتناوبون في الاستماع اليه . ثم تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة في الاقطار الاسلامية فقاموا فيها بحركة علمية والتف حولهم تلاميذ اخذوا العلم عنهم واذاعوه بين الناس .

مقدمة تاريخية وحضارية :

احتفظ الاسلام لذلك بمكانة ممتازة للعلم والعلماء ، وحرص منذ نشأته على طلب العلم والبحث على تعليمه . فلا عجب أن شهد المجتمع الاسلامى منذ سنواته الاولى مجالس العلم والتدريس تعقد حلقاتها وتختلف مظاهرها وتتعدد اماكنها . وكان ما حققه ذلك من نهضة علمية شاملة بهرت أنظار الجميع من العرب والمسلمين وغيرهم من الغربيين ، الامر الذى دفع كثيرا من العلماء والباحثين الى دراسة سبل التعليم والتدريس منذ نشأتها وفي مراحلها المختلفة وتتبع نظمها وتقاليدها واماكنها ومعاهدها ومنشأتها . وكان لهؤلاء العلماء فضل جلاء وتوضيح الكثير عن تاريخ العلماء ومجالسهم لنشر العلم . كما تعرض بعض الباحثين وعلماء الحضارة والآثار الاسلامية وبعض المستشرقين لنظم التدريس واماكنها ومعاهدها ومنشأتها ونظام تخطيطها ومكوناتها ، وخرجوا من ذلك باستنباط نظريات مختلفة لظهور المنشآت المخصصة للتدريس ونشر العلم وهى منشآت المعاهد العلمية التى عرفت في العصور التالية لصدر الاسلام باسم « المدارس الاسلامية » .

ومما يلفت النظر في هذه الابحاث والنظريات انها جاءت متباينة ومتعارضة فلم يتفق علماء الحضارة والآثار الاسلامية على رأى موحد سواء في اصل نشأة هذه المدارس والنظام والتخطيط الذى انبثقت عنه وتأثرت به هذه المنشآت كما لم يتفقوا على اشكال مكوناتها ووحداتها ، وعلى حلقات تطورها في العصور والاقطار الاسلامية . وهذا التباين والتعارض في الاراء والنظريات يعبر عن اختلاف ملحوظ في وجهات نظر العلماء حيال طبيعة هذه المدارس الاسلامية . وقد يرجع هذا الاختلاف الى ان بعض العلماء قصروا بحثهم على فترات معينة من التاريخ لم يتجاوزوها باعتبار ان هذه المدارس لم تعرف في التاريخ فيما قبل تلك العصور الاسلامية ، وكذلك يرجع الى اختلاف جوهري في تفسير نشأة هذه المدارس من الناحية التاريخية والعلمية وبالتالى مصادر تخطيطها . وربما نتج هذا التباين والتعارض من الاعتماد والاستشهاد ببعض أمثلة من هذه المنشآت والعمائر التى يجهلها البعض الآخر او لعدم معرفتهم لها أصلا لنقص المعلومات التاريخية والاثريّة عن نوعيات هذه المباني في بعض الفترات الاسلامية وخاصة حين قيام هؤلاء العلماء بالبحث والدراسات فكونوا نظرياتهم التى استنبطوها على أساس المعلومات التى كانت معروفة لهم حينئذ ، ثم تمسكوا بهذه النظريات بعد ذلك على ما فيها من قصور واضح . والامر الغريب الذى يلاحظ بوجه عام هو ارتباط بعض العلماء مسبقا ببعض النظريات التى ذهبوا اليها دون أن يكون لها سند قوى سليم من الأدلة التاريخية والاثريّة ثم تعصبهم لهذه النظريات المسبقة ودفاعهم عنها لدرجة حجت عنهم التسلسل الطبيعى

للاوضاع حتى في الابحاث التي قاموا بها شخصيا ، كما تسبب في قيامهم بتفسيرات بعيدة عن المنطق والواقع التاريخي والعلمي لبعض الوحدات والعناصر الاثرية المعمارية .

الابحاث والنظريات السابقة بايجاز

يرجع اهتمام علماء الحضارة والاثار الاسلامية بدراسة دور العلم والتعليم في الاسلام الى نهاية القرن الماضي ، تلك الدور التي عرفت في العصور الاسلامية الاخيرة باسم المدارس الاسلامية . واعتبر معظم هؤلاء العلماء أن الاصل في ظهور المدارس كان في نيسابور التي اقيم بها العديد من المدارس الاولى في منتصف القرن الخامس الهجري (١) . وان الفضل في نشرها يرجع الى نظام الملك وزير السلطانين السلجوقيين الب أرسلان وملك شاه ، الذي عمل على نشرها بصورة واسعة لاهداف متعددة .

هذا وكان اول من كتب عن نظم المدارس ونشأتها هو العالم المستشرق « فان برشم » ١٨٩٤ ، حيث قام ببحث طويل انتهى فيه بنظرية نسبت اليه مجملها أن الوزير نظام الملك توسع في نشر هذه المدارس لظروف ودوافع سياسية بجانب الاهتمام بالناحية العلمية ، وأن المدارس بعد انتشارها في العراق وخراسان انتقلت الى سوريا ومنها الى مصر ابتداء من القرن السادس الهجري (أى الثاني عشر الميلادي) وكان ذلك بتأثير جهاد المسلمين من المذهب السني ، ضد الصليبيين في بادئ الامر ، ثم ضد الفاطميين لمقاومة المذهب الشيعي ، واستعانوا لتحقيق الهدف الاخير بشر وتدریس العلوم الدينية على المذاهب الاربعة وأنه لذلك أصبحت عمائر المدارس تشتمل على اربعة ايوانات ، وضعت في تخطيط متعامد حول صحن أو بهو متوسط ، وهو ترتيب يتناسب مع النظام العلمي للمدرسة ، كما انه يرى أن نظام المدرسة لا علاقة له بتخطيط المساجد . ثم تطرف في نظريته حيث اعتقد أن نظام الايوانات المتعامدة حول صحن متوسط اشتق من الكنائس البيزنطية ذات التخطيط المتعامد في سوريا (٢) . هذا وقد وافق على هذا الجزء الاخير من نظرية (فان برشم) كل من العالمين « مارسيه » (٣) و « سلادان » (٤) وفي سنة ١٩٢١ م عارض العالم الفرنسي « جبريل » هذه النظرية تماما ، فذكر انه لا توجد اى صلة بين النظامين لاختلاف الاسس المعمارية لكل منهما . فنظام الايوانات في المدارس نشأ حول فناء مكشوف أو صحن متوسط غير مسقف ، بينما التخطيط المتعامد في الكنائس تطلبه ضرورة معمارية . فانشاء القبة التي تتوسط نظام الكنائس السورية يستلزم وجود دعائم قوية من الخارج حول محيط القبة لمقاومة قوة الضغط لمدفع من مركز القبة الى الخارج فكانت الايوانات بجدرانها القوية هي الطريقة المثلى انشائها ومعماريا .

وقد عارض الاستاذ « كرزويل » عالم الآثار المشهور هذه النظرية من عدة نواح ،

- ١ - المقرئى : الخطط ، الجزء الثاني ص ٣٦٢
- ٢ - دائرة المعارف الاسلامية : طبعة لندن - الجزء الاول عن العمارة .
- ٣ - جورج مارسيه : الآثار العربية في تلمسان ص ٤٠
- ٤ - هنرى سلادان : كتاب الفن الاسلامي - الجزء الخاص بالعمارة .

اولا من الوجهة التاريخية ، حيث افاد انه لم يرد في المراجع التاريخية ذكر لمدرسة واحدة سورية للمذاهب الاربعة ومعظمها كان لمذهب واحد ، وأورد عدة امثلة لذلك ، بل ان المدرسة المستنصرية في بغداد التي تسم انشاؤها سنة ٦٣١ م والتي جعلت للمذاهب الاربعة ودار الحديث والقراءات ، لم تكن بالرغم من ذلك على نظام الايوانات المتعامدة . وكذلك فان المدرسة الصالحية التي اقيمت بمصر في وقت معاصر تقريبا لتدريس المذاهب الاربعة ، لم يتبع أيضا في تخطيطها نظام الايوانات المتعامدة ، هذا ومن ناحية أخرى ذكر « كريزويل » أن أول مدرسة أنشئت على نظام الايوانات المتعامدة في مصر هي المدرسة الظاهرية ، ولم تكن لتدريس المذاهب الاربعة، بل كان يدرس فيها مذهبان فقط ، هما المذهب الشافعي والحنفي ، بايوانين متقابلين ، والحديث والقراءات بالايوانين المتقابلين الآخرين .

وهكذا هدم « كريزويل » نظام ارتباط الايوانات المتعامدة بتدريس المذاهب الاربعة ثم اضاف ايضا ان نظام الايوانات المتعامدة بالكنايس لم يكن معروفا في سوريا في ذلك الوقت (١) بل كان شائعا في آسيا الصغرى والقسطنطينية ، وكان اتباع هذا النظام هناك راجعا الى الضرورة المعمارية لانشاء القباب التي ذكرناها سابقا .

هذا وقدم الاستاذ « كريزويل » نظرية جديدة عوضا عن تلك التي هدمها في معظمها، حيث ذكر أن عمار المدارس هي أبنية أقيمت للتدريس ، وان نظام بناء المدرسة كان يتبع الهدف العلمي الذي أقيم من أجله ، وان عدد الايوانات بمبنى المدرسة يتناسب مع عدد المذاهب وعدد العلوم التي خصصت المدرسة لتدريسها ، وقد كان موافقا في هذه النتيجة ، فهو يعبر في الواقع عن الوضع الطبيعي المنطقي المتبع في العمارة الاسلامية الاثرية بوجه عام ، والذي يرجع اليه السر في عظمتها وتفوقها ، وهي أنها كانت تتبمع دائما الغرض الذي خصصت له ، فكانت ترجمة صريحة وسليمة للاغراض التي اقيمت من أجلها .

وكذلك من جهة أخرى يتفق « كريزويل » في هذا الرأي الى حد كبير مع نظرية « فان برشم » الاولى التي تفصل النظام المتبع في المدارس عن النظام المتبع في المساجد . ثم اكمل الاستاذ « كريزويل » نظريته بما يعتبره المصدر الذي يرجع اليه نظام المدارس الاسلامية ، وخاصة في مصر . حيث يعتبر أن نظام الايوانات بالمدارس الاسلامية مشتق أصلا من تخطيط القاعة الرئيسية بالمساكن المصرية ، الذي كان سائدا في العصر الفاطمي وما تلاه من العصور الاسلامية في مصر . ذلك ان تكوين هذه القاعة عبارة عن ايوانين متقابلين بينها صحن مربع يسمى « درقاعه » تنخفض ارضيته درجة عن ارضية الايوانين ومغطى بسقف يرتفع عن سقفي الايوانين المتقابلين . واستند في تكوين رأيه هذا الى ان كثيرا من الدور قد حولت الى مدارس . وقد اعطى مجموعة من امثلة المدارس التي كانت في أول أمرها دورا سكنية - وان ذلك النظام اتبع حتى في المدارس التي احتاج الامر فيها الى أربعة ايوانات ، فكان تكوينها عبارة عن تكرار لعنصر الايوانين المتقابلين حول

١ - كريزويل : العمارة الاسلامية في مصر - الجزء الثاني - ص ١٢٨ ، ١٢٩

فناء متوسط ، فأصبحت المدرسة تشتمل على اربعة ايوانات في مبنيين متلاصقين بكل منهما ايوانان متقابلان ، وذلك كما حدث في المدرسة الصالحية .

هذا وقد اورد حجة قوية لتدعيم رأيه ، وهي أن نظام القاعة ذات الايوانين المتقابلين السالف الذكر كان معروفا في العصر الفاطمي واستشهد بقاعة الدردير الفاطمية التي كشف عنها واهتم بها ، باعتبارها المثال الوحيد الذي لا يزال قائما من قاعات الدور الفاطمية ، لتوضيح النمط السائد لهذه القاعات . وسرى ان الاستاذ كريزويل في تحليله هذا لمنشآت ونظام عمائر المدارس وللمصدر الذي تطور منه هذا التخطيط كان يعبر عن احساس سليم ، ولكنه قصر وجهة نظره على جزء معين من مكونات الدار وهي القاعة . كما قصر بحثه عن منشأ التخطيط سواء للمدارس او للدور على عصر محدود وهو عصر الفاطميين . ونرى انه كان لذلك اثره في ان نظريته عن نظام المدارس ومصدره جاء فيها ثغرات بعثت بها عن أن تكون النظرية الكاملة النهائية .

وقد تعرض العالم المستشرق « رتشمند » لموضوع نظام المدارس ، فايد نظرية « كريزويل » في معظمها ولكنه اضاف ان نظام المساكن المصرية ، بمكوناته وهي القاعة والمقعد ، كان مقتبسا من أنظمة القصور الساسانية (١) . وهو اشتقاق بعيد تماما عن الحقيقة ، حيث ان نظام المساكن في عصر الفاطميين والعصور التالية له كعصر الايوبيين والمماليك ، هو في الواقع تطور محلي لتخطيط المسكن المصري الاسلامي من عصر الطولونيين (٢) . وقد يكون هناك اشتقاق في مبدأ الامر في الدور الطولونية من مثيلاتها في الدور والقصور في مدينة سامرا العباسية ولكن لم يكن في تلك الدور سواء الطولونية أو العباسية وجود لعنصر القاعة او المقعد بشكله المعهود في الدور الفاطمية والمملوكية ، وبالتالي لا يوجد اشتقاق بين هذه الدور الاخيرة وبين القصور الفارسية والساسانية

وفي سنة ١٩٣٢ م اعتبره العالم المستشرق هوتكور على نظرية « كريزويل » واعتبرها افتراضية ضعيفة السند (٣) ، حيث ذكر في بحثه عن المدارس أن نظام القاعة لم يكن معروفا بصفة قاطعة في مصر قبل العصر الايوبي في رأيه ، وان صحن القاعة المعروف باسم « الدرقاعة » مسقوف ، في حين ان فناء المدرسة كان دائما مكشوبا . وقد اعتبر « هوتكور » ان نظام المدرسة اشتق بهوه المكشوف من نظام المساكن ذات الصحن المكشوف المتوسط ، واشتقت ايواناته المسقوفة من الايوانات الفارسية الساسانية ، ونرى ان اعتراض « هوتكور » لا يستند على أساس في جزئه ، فالشق الاول منه اصبح في غير محله وذلك بالنسبة لما ذكره عن نظام القاعة السالف الذكر ، فهذا النظام كان فعلا معروفا في العصور الفاطمية ووضح ذلك من قاعة الدردير التي اكتشفت بعد ظهور كتابه كما استجلت ابحاث أثرية عن القاعات الفاطمية اسفرت عن أشكال وانظمة أخرى

١ - رتشموند : كتاب العمارة الاسلامية - ص ١٠٦ الى ١٠٩

٢ - دكتور عباس حلمي : مخطوط رسالة الدكتوراه عن تطور المسكن المصري الاسلامي من الفتح العربي الى العثماني - جامعة القاهرة ١٩٦٨ .

٣ - فييت وهوتكور : مساجد القاهرة - طبعة لادوس - باريس سنة ١٩٣٢

غيرت تماما من وجهات النظر عن مصدر نظام المدارس (١) كما سأتعرض اليه في نتائج البحث .

أما عن الشق الآخر من رأى « هوتكور » فهو رأى افتراضى تماما ولم يعتمد فيه على اساس معين ، وانما اعتمد على التشابه في الشكل الظاهرى دون أن يقدم ما يدعّمه من الامثلة المعمارية الاثرية ، ودون أن يذكر حلقة التطور حتى انتقاله وظهوره في أنظمة المدارس الاسلامية في مصر .

وفي البحث الذى قام به العالم المستشرق « هرتزفلد » عن نظام المدارس (٢) عام ١٩٣٣ م قدم تفسيراً افتراضياً آخر لنظام المدارس والايوانات به ، فقد اعترض على ارتباط عدد الايوانات بعدد المذاهب التى تدرس بالمدينة . واعتبر ايضا أن نظام المدارس مشتقة من نظام الايوانات المتعامدة حول فناء متوسط والمعروف في العمارة الفارسية . وانتقل هذا التخطيط الى المدارس كنظام معمارى انشائى متبع في الابنية الفارسية ولم يكن لاستعماله في المدارس علاقة بالغرض العلمى المقامة من أجله ، وبالتالي لم يرتبط بعدد المذاهب ونوعية العلوم التى ستدرس في المدرسة .

ويعلل استعماله في المدارس بأن الوزير نظام الملك في نهضته العلمية وحماسه لانشاء مجموعة من المدارس في العديد من مدن العراق وخراسان استخدم بنائين من الفرس لبناء هذه المدارس . وهؤلاء استخدموا وطوروا النظم والاساليب الفارسية القديمة واستعملوها في ابنية المدارس . وبهذه الوسيلة نقل التخطيط المتعامد من ايران واستعمل مباشرة في نظام المدارس المستجدة في مدن العراق ومنها الى الشام . فظهر هذا النظام المتعامد في المدرسة المستنصرية في بغداد التى اقيمت سنة ٦٣١ هـ ، وفي دمشق في دار الحديث والمدرسة الغورية اللتين اقيمتا قبل ذلك حوالى ٥٦٧ هـ .

ويكمل « هرتزفلد » نظريته بأن التخطيط الفارسى في ايران قد تطور وتغير قبل استعماله في العراق والشام . واننا نرى أن نظرية هوتكور غير منطقية وان كان قد قدم تفسيرات لها . ذلك أن فكرة اشتقاق الانظمة المعمارية من بلدان أخرى مجاورة أمر غير مستبعد ، لكن الاشتقاق كان يحدث دائما في أزمنة معاصرة أو على الاكثر من العصور السابقة مباشرة . لكن الاشتقاق دفعة واحدة من عصور موعلة في القدم دفعة واحدة أمر مستبعد ، وخاصة أن طرق البناء والانشاء قديما كانت تعتمد على مجموعة من البنائين

١ - الدراسات والابحاث الاثرية التى قمت بها قبل سنة ١٩٦٦ م عن تخطيط قاعة « ست الملك » الفاطمية بالقصر الغربى الصغير بقاهرة الفاطميين ، اسفرت تلك الابحاث عن وجود نظام آخر للقاعة الفاطمية ، وهو نظام القاعة ذات الاربعة ايوانات المتعامدة والصحن المكشوف المتوسط ، وهى تعتبر حلقة التطور بين نظام الدور الفاطمية والملوكية المتضمنة القاعة ذات الايوانين المغطاة والدور ذات الايوانات حول فناء مكشوف وقد اثر هذا الكشف الاثرى في بعض نظريات العمارة الاسلامية ومنها نظام المدارس ومصدره . وسأتعرض لذلك في ختام البحث . وقد اشرت الى نظام قاعة « ست الملك » الفاطمية في بحث تطور المسكن المصرى الاسلامى - جامعة القاهرة سنة ١٩٦٨ - ص ١٥٤ ، ١٥٥

٢ - هرتزفلد : بحثه « دراسات في العمارة » المجلد التاسع من الفنون الاسلامية قسم ٢

الذين كانوا يتوارثون فنون الصناعة عن آبائهم واجدادهم ، ولم يكن معهودا ان يقوموا بنقل طرزهم وطرق بنائهم من أمثلة وآثار قديمة تسبق عصرهم باكثر من سبعة قرون

والذى نلاحظه بصفة عامة أن أوجه الشبه بين النظام المعمارى للمدارس في بعض أمثلة عمارتها ، وبين نظام الايوانات المتعامدة في العمارة الفارسية قد لفت نظر كل من العلماء « هوتكور » و « هرتزفلد » ولكنها لم يقدموا تفسيراً سليماً واقعياً لذلك ولطريق تطورها وانتقالها من فارس الى بغداد والشام ومصر ونفس هذا الامر حدث أيضاً في أبحاث العالم المستشرق « ديز » (١) وبجانب ذلك أيضاً نجد أن جميع المستشرقين بعد « فان برشم » قد عارضوا نظرية ارتباط نظام الايوانات المدارس مأخوذ من النظم الفارسية التى استندوا اليها منطقية وسليمة وكان العالم « كرزويل » أكثرهم وضوحاً وتفسيراً في ذلك .

ومن أواخر من تعرض لبحث نظام المدارس من المستشرقين ، العالم « جودار » سنة ١٩٥١ م وبعده يستند العالم « لوفريه » (٢) . والاول بحثه أكثر أهمية وهو يفترض في بحثه أيضاً أن مصدر نظام المدارس مأخوذة من النظم الفارسية التى يذكر انها كانت مستعملة ومنتشرة في فارس قبل انتقالها الى مصر وسوريا . وهو لذلك يعارض « كرزويل » ويرفض فكرة اشتقاق نظام المدرسة من تخطيط « القاعة » بالمساكن والدور . ومن القرائن التى يستند اليها « جودار » فيما يذهب اليه أن استقرار نظام الايوانات المتعامدة في فارس أمثلة لبعض المساكن والمدرسة في تواريخ سابقة لانتشار المدارس (٣) ، وأنه اتبع أيضاً في بعض المساجد أهمها مسجد أصفهان سنة ٥١٥ هـ ، ومسجد زواري سنة ٥٢٥ هـ . ويذكر انه نظراً لاستقرار هذا النظام وانتشاره ، كان من الطبيعى أن تتبعه عمارت المدارس ذات الايوانات الاربعة المتعامدة .

ولعل اهم ما اشتملت عليه نتيجة بحث « جودار » هو نظريته التى يرجح فيها أن نظرية الايوانات الاربعة المتعامدة نابع ومشتق من نظام المساكن في خراسان . وأن المدارس كانت السبب في انتقال هذا النظام الى المساجد الايرانية على نفس التخطيط المتعامد . والشق الاول من نظريته نعتبره رأياً افتراضياً حيث لم يستند الى تفسير أثرى تاريخي ، كما أنه ربط في الشق الثانى من رأيه بين المدارس والمساجد دون اى مبرر واضح ، الامر الذى

١ - ارنست : ديز : الجزء الثالث من معجم الفن الفارسى لبوبز ص ٩٢١

٢ - يتلخص بحث لوفريه في ان المدارس السورية مشتقة من المساكن والدور في سوريا ويذكر ان نظام تلك المساكن مشتق من المساكن والدور البيزنطية في شمال سوريا ثم تطور نظام المدارس السورية بعد ذلك واتبع نظام الايوانات المتعامدة . أما المدارس خارج سوريا فقد اتبعت النظام المتعامد بتأثير النظام الفارسى ذى الايوانات المتعامدة ، مقال لوفريه : المدرسة السلطانية ككتاب دراسات معمارية وأثرية في سوريا ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٣ م .

٣ - جودار : مصدر المدرسة والمسجد على نظام الاربعة ايوانات المتعامدة ، مقال في مجلة الفن الاسلامى - المجلد الخامس ١٩٥١ - ص من ١ الى ٩

دفع كريزويل سنة ١٩٥٨ م (١) الى الاعتراض على نظريته بأكملها ورفضها بشقيها هذا وأرى أن « جودار » في الشق الاول من نظريته قد اقترب كثيرا من الوضع الصحيح كما سأتعرض لتوضيحه فيما بعد ولكن على أسس أخرى سليمة .

وفي نهاية أبحاث المستشرقين ، يذكر العالم « جرابار » سنة ١٩٦١ م في تعليقه على كتاب الاستاذ « كريزويل » العمارة الاسلامية في مصر (٢) : انه يرجح ان نظام المدارس الفارسية الاول لا يزال غير محدد . وان ماوضع بشأن ذلك من نظريات لا يمكن الاطمئنان اليه تماما . وقد كان أهم ما جاء في بحثه انه ذكر ثلاثة اعتبارات أو عوامل يلزم مراعاتها عند دراسة موضوع نظام عمارة المدارس . وهي طريقة توزيع وحدات ومكونات مبنى المدرسة أى الفكرة في تخطيطها ثم الوظيفة أو الغرض العلمى الذى انشئت من أجله المدرسة واخيرا علاقة كل من الفكرة في التخطيط والغرض العلمى وارتباطهما بطبيعة العناصر المعمارية المستعملة . وقد كان جرابار موقفا في ذكر هذه العوامل الثلاثة التى نرى أنها تصلح فعلا أساسا للدراسة التاريخية والاثريّة والعلمية للموضوع .

وهكذا نصل الى نهاية الابحاث والنظريات السابقة للعلماء والمستشرقين الغربيين عن نظام المدارس الاسلامية ، ومحاولة الوصول الى مصدره الذى اشتق منه - وهى رغم تنوعها وتعارضها ، يمكننا ان نلخصها بايجاز في النظريات التالية :

النظرية الاولى : التى ارجعت سبب احتواء المدرسة على اربعة ايوانات الى تدريس العلوم على المذاهب الاربعة وان نظام المدارس ذات الايوانات الاربعة المتعامدة مشتق من التخطيط المتعامد للكنائس السورية البيزنطية .

النظرية الثانية : عدم وجود ارتباط بين عدد المذاهب وعدد الايوانات وان نظام المدارس خاصة في سوريا ومصر مشتق من القاعة بالمساكن والدور الاسلامية في العصر الفاطمى .

النظرية الثالثة : التى ترجع اشتقاق المدارس لنظام الايوانات الاربعة المتعامدة الذى كان سائدا في العمائر القديمة ، وفي المساكن في فارس . وانه استعمل في المدارس كنظام معمارى انشائى ، لا علاقة له بالغرض العلمى او تعدد المذاهب ونوعية العلوم بها .

هذا والاحظ بصفة عامة على هذه الابحاث وجود عدة عوامل هامة كان لها تأثيرها في توجيهها ومسارها ونتائجها .

اولها انه كان يغلب على تصور هؤلاء المستشرقين أصحاب هذه النظريات على

١ - كريزويل : العمارة الاسلامية في مصر ، الجزء الثانى - ص ١٢٣

٢ - جرابار : تعليق على كتاب كريزويل « العمارة الاسلامية في مصر » - نشر في مجلة الفنون الشرقية المجلد الرابع ١٩٦١ م ص ٤٢٦

اختلافها ، ان نشأة المدارس الإسلامية ترجع غالبا الى منتصف القرن الخامس الهجرى وان الفصل في ظهورها وانتشارها يرجع الى الوزير السلجوقى (نظام الملك) • فكان اهتمامهم بنظام المدارس وعمارتها يبدأ من هذا المنطلق ، وبالتالي لم تشمل أبحاثهم ودراساتهم المدارس الإسلامية فيما يسبق هذا التاريخ أو في بلاد أخرى خارج نطاق ما كان يعتقد أنه المكان الاول لنشأة وانطلاق هذا النظام •

وثانى هذه الملاحظات ان الغرض العلمى من إنشاء هذه المدارس لم يلق الاهتمام الكافى من المستشرقين • فلم تحظ الناحية العلمية ونوعية العلوم التى تدرس ، وطريقة التدريس وعلاقتها بالاساتذة والطلاب بها ، بالدراسة الكافية ، مع ما فى ذلك من تأثير واضح على نظام المدارس وعمارتها • وكان الاهتمام مقصورا فى حدود تأثيرها على ترتيب نظام المدرسة وشكل مكوناتها ووحدها • أى ما يعبر عنه اجمالا بتخطيط عمارة المدرسة • وربما كان لطبيعة من تصدى لدراسة هذا الموضوع من المستشرقين أثره فى قصور أبحاثهم فى هذا المجال •

والملاحظة الثالثة على الدراسات والابحاث عن موضوع المدارس التى سببت بعض اللبس فى الدراسات السابقة والمستجدة هى الخلط بين وظيفة المدرسة ومهمة المسجد ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان المدارس كانت لتدريس العلوم الدينية واستمر هذا النوع من التخصص هو الغالب فى العصور التالية وارتباط تدريس العلوم الدينية بنشر تعاليم الدين الإسلامى واضح ، وبالتالي كانت المحافظة على تادية شعائر الصلاة من ضمن الواجبات الرئيسية التى حافظت المدرسة عليها بين طلابها يؤمهم فيها الاساتذة علماء الدين •

ومن هنا اختلط الامر على بعض الباحثين والعلماء فاعتبروا المدرسة هى نوع من المساجد الصغيرة المتطورة • وقد ساعد على هذا الظن من جهة أخرى أن تدريس العلوم كان أيضا من ضمن مهام المسجد المتعددة والمتنوعة خاصة فى صدر الإسلام • وكذلك كانت هناك دائمة فى جميع العصور حلقات للدرس يعقدها العلماء فى المساجد ، ولكن ذلك لم يغير من طبيعة عمارة المسجد الى نظام المدرسة واختصاصها ، وبالتالي فان مراعاة إقامة صلاة الجماعة للطلبة بانتظام فى أوقاتها لا يغير من طبيعة المدرسة ويحولها الى وظيفة المسجد ، حتى ولو انضم تجمهر الطلبة افراد من الخارج فى أيام الجمع وغيرها ، وسنرى فى بعض العصور أن بعض المدارس كانت تعاون فى استيعاب جمهور المسلمين لضيق المساجد عن ذلك أيام الجمع • وقد أشار الى ذلك صراحة بعض المؤرخين (١) ولكن ذلك لم يغير من طبيعة وظيفة المدرسة ويحولها الى مسجد •

١ - ذكر القلقشندى فى بعض رواياته عن القاهرة فى عصر الأيوبيين وما بعده ، انه اقيمت الجمعة فى المدارس والمساجد الصغار المتفرقة فى الاطراف لكثرة الناس وضيق الجوامع عنهم (كتاب صبح الاعشى ، الجزء الثالث ص ٣٦٦) •

الابحاث والنظريات المستجدة

عن المدارس

استغرقت الابحاث الماضية فترة حوالى سبعين عاما ، حيث كانت بدايتها بحث ونظرية «فان برشم» في سنة ١٨٩٤ ونهايتها بحث وتعليقات «جرا بار» ١٩٦١ م وطوال هذه المدة كانت الابحاث تقريبا وفقا على المستشرقين الغربيين وان كانت هناك ابحاث محدودة وصغيرة لعلماء آخرين ، وتعليقات مفردة عن بعض النواحي والعناصر الاثرية والمعمارية في المدارس ، بغرض تصحيح جزئى لبعض النظريات او البيانات عن امثلة مستشهد بها .

وفي السنوات الاخيرة قام عالم الحضارة والاثار الاسلامية الدكتور احمد فكرى بعمل دراسة مطولة ومفصلة عن نظم المدارس الاسلامية تعرض فيها للنظريات التى أسفرت عنها بحوث المستشرقين السابقة . وقد رفض النظريات السابقة لجميع المؤرخين لقيامها في رأيه على أسس غير صحيحة . فبالنسبة للنظرية الاولى السالفة الذكر وهى نظرية « فان برشم » اعترض على فكرة اشتقاق نظام الايوانات المتعامدة من الكنائس السمورية البيزنطية واعتمد في اعتراضه على نفس الاسباب التى ابداه «جبريل» و «كرزويل» في رفضهما لهذه النظرية . وكذلك اعترض على باقى نظرية « فان برشم » التى تربط وجود اربعة ايوانات بالمدارس بغرض تدريس العلوم الدينية على المذاهب الاربعة . واتبع في اعتراضه نفس الطريقة التى اتبعها كرزويل في تفنيد هذا التصور . واستشهد ايضا بنفس الامثلة الاثرية التى استشهد بها كرزويل . هذا وكانت أهم الامثلة التى استشهد بها « كرزويل » أن أول مدرسة أنشئت في العالم الاسلامى لتدريس المذاهب الاربعة هى المستنصرية (١) في بغداد سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤ م) لم تكن على نظام الايوانات المتقاطعة (الصليبية) - شكل رقم « ١ » . وكذلك المدرسة الصالحية وهى اول مدرسة للمذاهب الاربعة في مصر لم تكن على نظام الايوانات المتقاطعة ايضا - شكل رقم « ٣ » ، كما لم تكن على نظام المدرسة المستنصرية ببغداد . وكذلك فان اقدم مدرسة اقيمت على نظام الايوانات المتعامدة في مصر هى المدرسة الظاهرية سنة ٦٦٢ هـ ولم تكن لتدريس المذاهب الاربعة (٢) وهكذا انتهى كرزويل الى عدم وجود علاقة بين عدد الايوانات الاربعة بالمدرسة وبين تدريس المذاهب الاربعة ووافقه على ذلك الدكتور فكرى .

١ - المدرسة المستنصرية انشأها الخليفة المستنصر بالله فى بغداد واكمل بناؤها ٦٣١ هـ وكانت للمذاهب الاربعة ودارا للحديث والقراءات .

٢ - المدرسة الظاهرية انشأها السلطان الملك الظاهر بيبرس بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ وذكر المقرئى انه كان يدرس بها الشافعية بالايوان القبلى والحنفية بالايوان البحرى والحديث بالايوان الشرقى والقراءات السبع بالايوان الغربى (الخطط الجزء الثانى ص ٣٧٩)

هذا واننا نلاحظ ان الجزء الرئيسى من نظرية « فان برشم » عن نظام المدارس وعمارتها قد اعترض عليه معظم المستشرقين الآخرين بخلاف اعتراض الاستاذ كرزويل والدكتور فكرى . واننا نرى ان السبب في ذلك يعود الى ان ما تضمنه هذا الجزء هو نظرية افتراضية لا تستند على اساس من الامثلة الاثرية المعمارية ، كما لم يصاحبها البحث اللازم من الناحية التاريخية والتعليمية . وقد كانت الاعتراضات بخصوصها في محلها ولذلك يتعين علينا ان نستبعدا من مجموع النظريات عن اصل نظام المدارس وعمارتها (١) . ويتبقى بعد ذلك من نظريته الجزء الذى اشار فيه الى اختلاف نظم المدارس عن نظم المساجد ، وان لكل منها نظاما مختلفا تمام الاختلاف وان علماء الآثار خلطوا بين المسجد والمدرسة . ونرى انه في ذلك القول يعبر عن ملاحظة واعية واحساس سليم بالفرق بين طبيعة كل من النظامين ، ولعل ذلك هو ما دفعه الى البحث عن أصل لنظام المدارس وعمارتها خارج نطاق الامثلة والآثار الاسلامية ، ولكن خافه التوفيق في ذلك وخرج بنظريته الافتراضية المرفوضة . ولكن هذا التفسير والفصل بين نظام المدرسة والمسجد سنرى ان له ما يبرره ، وان كان « فان برشم » قد ذكره بنظريته دون ان يقدم ما استند اليه في ذلك ، وسنعرض ما يؤيده من اسباب فيما بعد . كذلك نرى ان الاستاذ كرزويل لم يعترض عليها فعلا ، بدليل انه ذكر اصلا لنظام المدارس ، بعيدا تماما عن نظام المسجد وعناصره ، وهو اشتقاقها من نظام « القاعة » بالدور والمساكن الفاطمية . هذا وقد اعترض الدكتور فكرى على نظرية الفصل بين المدرسة والمسجد وقدم لذلك اسبابا سنناقشها في حينها بالبحث . ونرى بصفة عامة ان الاسباب والتحليل والبحث الذى قام به يؤدى في الحقيقة الى اثبات عكس ما ذهب اليه وان المدرسة كان لها نظام مستقل لعمارتها واسباب مستقلة لنشأتها ومنها استمدت مصادر نظامها .

وقد اعترض الدكتور فكرى بحماس على نظرية الاستاذ كرزويل التى تقول : ان نظام المدارس اشتق من نظام « القاعة » بالدور السكنية ، خاصة في مصر وسوريا ، واستند في ذلك الى ان دروس الاوائل كانت تلقى في مساكن الشيوخ العلماء وان كثيرا من الدور قد حولت الى مدارس ذكر منها ١٣ مثلا لهذه الدور منها ستة في مصر ، وستة في دمشق ، وواحدة في حلب . وهذه الامثلة قد اندثرت جميعها ، ولكنه اوردتها بناء على رواية المقرئى (٢) ، كما ذكر مدرستين لا تزالان قائمتين حتى الان وهما المدرسة

١ - على الرغم من الاعتراضات التى قبلت بها نظرية « فان برشم » وما انتهى اليه السراى الى رفض الجزء الرئيسى منها فانه يلزم الاشارة الى انه يرجع اليه فضل ظهور اول دراسة اثرية معمارية لنظام المدارس وعمارتها ١٨٩٤ م وان ظهور باقى النظريات نبع من معارضة العلماء لا جاء فى نظريته ومحاولتهم الوصول الى نظرية بديلة تصحح ما ذكر بها من افتراضات جاءت بعيدة عن الوضع الصحيح .

٢ - ذكر المقرئى في الخطط اسماء المدارس التى كانت دورا وحولت الى مدارس وهى مدارس القهجية والسيوفية والمردية القيسرانية ومنازل العز (الخطط الجزء ٢ صفحات ٣٦٢ الى ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٩٤)

الغنامية ومدرسة خوشقدم الاحمدى (١) ، واستطرد كرزويل فذكر ان « القاعة » لهذه الدور كانت المكان الملائم للتدريس لاحتوائها على ايوانين متقابلين بينهما صحن مربع يسمى « الدرقاعة » . وان هذه القاعة بايوانها كانت المصدر الذى اشتق منه نظام المدارس ، كما نراه في المدرسة الكاملية ذات الايوانين - (اشكال ٣ ، ٤) ثم في المدارس ذات الاربعة ايوانات ، ضوعفت المدرسة ذات الايوانين فاصبحت اربعة ايوانات من مدرستين متلاصقتين من ذوات الايوانين ، كما كان الحال في المدرسة الصالحية (اشكال ١ ، ٦٥ ، ٧) . وانه تم بعد ذلك اندماج الايوانات الاربعة في بناء واحد في نظام الايوانات المتقابلة والمتعامدة المتقاطعة وتم تطبيق ذلك في المدرسة الظاهرية بعد اربعين سنة من ظهور المدارس ذات الايوانين المتقابلين في المدرسة الكاملية وبعد عشرين سنة من ازدواج هذا النظام في المدارس ذات الاربعة ايوانات في المدرسة الصالحية . وبخصوص الناحية التعليمية فقد ذكر كرزويل ان المدرسة هي بناء اقيم خصيصا للتدريس وان الايوانات بها كانت مخصصة للتدريس ، كل ايوان مخصص لتدريس مذهب من المذاهب او علم محدد من العلوم كالحديث او القراءات ، فكان نظام عمارة المدرسة يتبع بالتالى الغرض العلمى للمدرس والتعليم الذى انشئت لاجله المدرسة .

وقد اعترض الدكتور فكرى على نظرية الاستاذ كرزويل جملة وتفصيلا كما اعترض على النظرية الثالثة الفارسية السابقة التى اشرنا اليها والتى نادى بها « هوتكور » و « هرتزفلد » و « جوادى » مع بعض الاختلاف في التفاصيل ، وخلص من اعتراضاته الى نظريته الشخصية - وسنذكر بايجاز اعتراضاته على هاتين النظريتين التى استخلص منها نظريته ، كما نذكر رأينا بخصوص اعتراضاته ووجهة نظره في نظريته الاخيرة ، وذلك تمهيدا لما نراه بخصوص اصل ومصدر نظام المدارس . ونجمل ذلك في الآتى : -

(اولا) ابتداء الدكتور فكرى بالاعتراض على النظرية الفارسية - التى تقول بان نظام الايوانات الاربعة المتعامدة كان معروفا من القدم في ايران وفارس ، وان المدرسة اشتقت من هذا النظام لصلاحيته لتدريس المذاهب الاربعة . وبنى اعتراضه على اساس ان المثال المستشهد به لاثبات الاشتقاق ، انما هو رسم اقتراضى خيالى لبقايا مبان في « خرجرو » قيل انه يمثل المدرسة النظامية التى انشئت ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . كما ان هرتزفلد نفسه يشك في كون هذا البناء مدرسة ، وان الامثلة الاخرى المستشهد بها هي لمبان صغيرة غير واضحة او اندثرت ، ولذلك يستبعد الدكتور هذه النظرية لعدم وجود امثلة واضحة وقوية .

واننا نضيف الى ذلك ما سبق ان ذكرناه عند ذكر هذه النظرية لأول مرة ان فكرة

١ - المدرسة الغنامية كانت في اصلها دارا اقيمت سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٢ م) وحولت الى مدرسة حوالى ٨٢٤ هـ (١٤٢١ م) ومدرسة خوشقدم الاحمدى كانت في اصلها دارا لاحد الامراء وقيمت ٧٦٨ هـ (كرزويل - العمارة الاسلامية في مصر الجزء الثانى ص ١٢٩ الى ١٣١)

اشتقاق الانظمة المعمارية دفعة واحدة من عصور موعلة في القدم امر مستبعد تماما ولم يحدث في تاريخ العمارة الاسلامية في جميع عصورها ان لجأ البناؤون والفنيون لهذا الاسلوب في النقل او الاقتباس البعيد ، وانه حتى لو وجدت امثلة واضحة لمثل هذا التخطيط لوجب البحث عن مصدره في مبان معاصرة او سابقة له بزمان وجيز .

(ثانيا) بخصوص الرأي القائل باشتقاق نظام الايوانات الاربعة للمدرسة من انظمة المساكن الفارسية لاسباب معمارية انشائية بقطع النظر عن عدد المذاهب التي تدرس بالمدرسة باعتبار ان هذا النظام مناسب للتدريس به في هذه الايوانات ، فان الدكتور فكرى يستبعد لعدم صلاحية الايوانات المفتوحة للتدريس لتعرضها للعوامل الجوية صيفا وشتاء ، ولعدم صلاحية هذه الايوانات للصلاة كما ان هذا النظام لا يوفر المكان اللازم لمساكن الطلبة .

واننا نرى ان ما ذهب اليه الدكتور فكرى عن تعذر التدريس في الايوانات نظر التعرضها للظروف الجوية صيفا وشتاء يعارضه اقوال المؤرخين الموثوق بهم ، فقد اشار المقرئى في اكثر من مكان في كتابه الى تخصيص الايوانات للتدريس لمذاهب معينة وذكر صراحة في كتابه « السلوك » عن المدرسة الظاهرية ، انه جلس اهل كل مذهب في ايوانهم (١) ، وزاد على ذلك توضيحا في الخطط عن هذه المدرسة ان اهل الدروس بالايوان القبلي والحنفية بالايوان البحري جلسوا كل طائفة في ايوان منها ، الشافعية واهل الحديث بالايوان الشرقي ، والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربى (٢) كما ذكر المقرئى ايضا في الخطط عن المدرسة الناصرية ان مدرس المالكية كان بالايوان الكبير القبلي ، وكان مدرس الحنفية يدرس بالايوان الشرقي ومدرس الجنبلة بالايوان الغربى ومدرس الشافعية بالايوان البحري (٣) . وفي هذان صريح لاستعمال الايوانات للتدريس ، كما ان ابن بطوطة روى ان المدرسة المستنصرية بها اربعة مذاهب ، وان لكل مذهب ايوانا فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط (٤) ويعترض الدكتور فكرى على رواية ابن بطوطة لذكره ان بالمدرسة المستنصرية اربعة ايوانات في حين لا يوجد بهذه المدرسة اربعة ايوانات . ونرى انه اذا كان ابن بطوطة قد اخطأ في عدد الايوانات فان ذلك لا يجعلنا نستبعد روايته عن الوصف التفصيلي الواضح لطريقة التدريس بالايوانات وموضع وطريقة جلوس المدرس به ، مما يقطع باستعمال الايوان للتدريس .

اما اعتراض الدكتور فكرى عن عدم وجود مسجد لكل مذهب بالمدرسة على خلاف رواية ابن بطوطة فاننا نقول انه اساء تفسير قول ابن بطوطة الذى يذكر « ان لكل ايوان فيه

١ - المقرئى كتاب السلوك - الجزء الاول ص ٥٠٤

٢ - المقرئى : الخطط الجزء الثانى ص ٣٧٩

٣ - المقرئى : الخطط الجزء الثانى ص ٣٨٢

٤ - ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الامصار - الجزء الاول ص ١٣٥

المسجد وموضع التدريس ٠٠٠ الخ » وهو ما يفهم منه أن الايوان كان للصلاة وللتدريس في آن واحد ، ولم يذكر أن هناك مسجدا مستقلا ، والجدير بالذكر ان الدكتور فكرى ذكر جميع هذه الروايات في كتابه « مساجد القاهرة ومدارسها » (١) في مجال الاعتراض على تخصيص كل ايوان لمذهب معين ، ولكن مهما كانت طبيعة المذهب ٠٠ او العلوم التى تدرس فان هذه الروايات وغيرها مما اشار اليه الدكتور فكرى في كتابه وذكره قبله الاستاذ كرزويل بالتفصيل (٢) ، تقطع باستعمال الايوانات للتدريس ، هذا ومن جهة اعتراض الدكتور فكرى على ان المدارس الاربعة التى تناولتها هذه النصوص انشئت في عصر المماليك بعد انشاء المدارس باكثر من قرنين وبعد استقرار نظام التدريس بها ، هذا الاعتراض في غير محله فالظروف الجوية صيفا وشتاء في عصر المماليك هى نفسها الظروف الجوية قبل ذلك بقرنين من الزمان لم يطرأ عليها تغير .

ونستخلص مما سبق ، ان الايوانات فعلا كانت تستعمل للتدريس بقطع النظر عن نوعية العلوم التى تدرس بها ، وانها كانت تستعمل ايضا للصلاة ، عندما يحين وقتها دون تخصيص مكان معين لذلك ، وهو الذى أطلق عليه الدكتور فكرى «بيت الصلاة» في محاولته المسبقة للاحاق نظام المدرسة وتشبيهه بنظام المسجد الجامع ، وسنرى فيما بعد ان التدريس كان يتم ايضا في قاعات أخرى بمبنى المدرسة بجانب التدريس بالايوانات ، ولعل التدريس بالايوانات كان للمجموعات الكبيرة من الطلبة او لتلك الدروس التى يشترك فيها جميع الطلبة ، والقاعات الاخرى كانت للدروس والتخصصات الفرعية التى تقتصر على مجموعات محددة من الطلبة ، أى ما يشابه الوضع الحالى بالمدارس والجامعات التى يخصص بها قاعة او مدرج كبير للمحاضرات العامة بجانب القاعات الصغرى والفصول للمحاضرات العادية للطلبة .

ونرى من ذلك ايضا سقوط اول تشبيهه او اشتقاق لنظام المدارس من نظام المساجد وهو الذى يعتمد فيه على اعتبار الايوان القبلى معادلا « لتلك المقدمة » في المساجد ، والذى يعبر عنه في نظريته باسم « بيت الصلاة » ذلك ان المدرسة مبنى مخصص وقيم لغرض تدريس العلوم التى كانت في معظمها العلوم الدينية وكانت الصلاة والشعائر الدينية بطبيعة الحال يحافظ على ادائها بانتظام بالايوان الخاص بالمذهب الذى يدرس بهذا الجزء من المدرسة فالصلاة كانت تقام عندما يحين وقتها في اى ايوان او مكان صالح ، ويستخدم بالايوان الحائط المناسب في اتجاهه كحائط للقبلة . وليس ادل على بعد وظيفة المدرسة واستقلالها عن وظيفة المسجد من انه كان يخصص في بعض المدارس مكان مستقل ومنفصل كمسجد للمدرسة جميعها ، شأنها في ذلك شأن اى مبنى عام من العمائر المدنية ، وذلك مثل ما نلاحظه في المدرسة المستنصرية ببغداد التى نلاحظ في مخططها مكانا مستقلا منفصلا للمسجد (شكل ١ السابق) .

١ - د . احمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الثانى ص ١٧٨

٢ - كرزويل : العمارة الاسلامية في مصر - الجزء الثانى ص ١١٠ ، ١١١

(ثالثا) بنصب اعتراض الدكتور فكرى بعد ذلك على نظرية كرزويل باشتقاق نظام المدرسة من نظام «القاعة» في الدور السكنية التى اسلفنا الإشارة الى مضمونها فيعترض على تاريخ قاعة « الدردير » التى استشهد بها كرزويل كأول الأمثلة لهذا النظام والذي اعتبره « كرزويل » في القرن السادس الهجرى ، بناء على بعض العناصر المعمارية ، فذكر الدكتور فكرى انه يرجح اعتبار تاريخ هذه القاعة في القرن السابع الهجرى على الأقل ، دون تقديم اساس أو دليل أثري أو معمارى أو تاريخى لذلك ، كما أعاد ذكر اعتراض « هوتكور » على هذه النظرية بشأن اختلاف نظامها عن نظام الايوانات والصحن المكشوف بالمدرسة وأن ذلك يعتبر كافيا لنفى الصلة بينهما .

ثم تطرق الدكتور فكرى الى نظرية جديدة هي ان نظام القاعة مشتق من نظام المسجد وأن القاعة سقفت لصغر حجمها ولتوفير الراحة لشاغلها . وذكر هذا الرأى كنظرية افتراضية ايضا دون ان يقدم كذلك أى استناد أثري لذلك من أى نوع .

واننا نرى ان د . فكرى في هذا الاعتراض قد خافه التوفيق جملة وتفصيلا كما نرى انه خلط بين نظام « القاعة » كجزء من مكونات الدار ، وبين تخطيط الدار عموما . وايضا لم يأخذ في اعتباره الابحاث المسجدة عن تطور نظام المساكن والصور في العصور الاسلامية خاصة في مصر التى قصر عليها معظم ابحاثه عن نظام المدارس . فهو في شرحه لنظام قاعة الدردير ، اى تخطيطها ، وهى التى قدم رسما لتخطيطها شكل (٨) نشر في كتابه (١) ، نلاحظ انه يخلط بينها وبين التخطيط الكامل للدور فيقسم القاعة الى ثلاثة اقسام يعتبر كل ايوان بالجانبين قاعة مستقلة والجزء المتوسط بالقاعة والمعروف باسم « الدرقاعة » يعتبره بمثابة صحن الدار . كما يطلق على دخول في حائط القاعة لا يتجاوز عمقه ٦٠ سم لفظ « المقعد » الذى هو في النظام المتكامل للدور يطلق على مكان للجلوس الصيفى ، مساحته تقارب مساحة القاعة بأكملها ويطل على الصحن او الفناء المتوسط المكشوف دائما بأعمدة وعقود (في الحاشية : انظر الرسم رقم (١٠) لنموذج الدار الاسلامية الذى كان سائدا في العصر المملوكى واواخر العصر الايوبى) . واذا تجاوزنا عن هذا الخطأ الفرعى فان اعتراض الدكتور فكرى على تاريخ القاعة ليس له ما يبرره . فالقاعة محدد تاريخها في النصف الاول من القرن السادس الهجرى (القرن ١٢ م) بناء على مقارنة العناصر المعمارية لها ، واهمها اشكال العقود والمقرنصات في اركان قبو الايوانات . (انظر الصور الداخلية لقاعة الدردير ومخططها ارقام ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤)

١ - الدكتور فكرى : كتاب « مساجد القاهرة ومدارسها » شكل ٥١ ص ١٧٣ ونشاهد بالرسم خطأ معماريا واضحا حيث اغلقت القاعة من جهاتها الاربعة وازيلت المداخل المؤدية اليها فاصبح يتعذر طبقا للرسم الدخول اليها . ونلاحظ الفرق بمقارنته بالرسم الصحيح المنشور بالبحث والمراجع على الطبعة « شكل ٩ » والماخوذ عن كرزويل والمنشور بكتاب العمارة الاسلامية في مصر - وتجهيز الرسم بهذا الوضع فضلا عن خطئه المعماري ، يعطى تأثيرا مخالفا للحقيقة بأن القاعة مبنى قائم مستقل بذاته ، يمثل جميع مشتملات المسكن المصرى الاسلامى الفاطمى .

هذا واننا نضيف الى ذلك نقوش الزخارف النباتية والحيوانية المحفورة على الافريز
الشمسي المثبت بجائط القاعة . فطراز هذه الزخارف فاطمي صريح ويقطع بنسبة القاعة
الى النصف الثاني من العصر الفاطمي . وبذلك تكون القاعة انشئت في النصف الاول
من القرن السادس الهجري على اكثر تقدير وربما قبل ذلك .

وبالنسبة لاعتراض « هوتكور » الذي تمسك به الدكتور فكرى ، بخصوص اختلاف
نظام القاعة عن نظام المدارس ذات الايوانين حول فناء مكشوف فهناك فعلا اوجه اختلاف
واوجه تشابه ، الامر الذي يستدعى المزيد من الدراسة والتحليل ، ولكن الدكتور
فكرى بدلا من ذلك عمد الى استبعاد العلاقة بين النظامين دفعة واحدة دون تخصيص .

واننا نرى ان اوجه التشابه اقوى في الحقيقة من اوجه الاختلاف . ونظرية كرزويل
لها ما يبررها من الناحية التعليمية ومن الناحية الاثريّة والمعمارية . ولكن التفسير
الذي ذكره كرزويل بنظريته جاء ناقصا مبتورا ، مما جعل بها فجوات اثارت
الاعتراضات عليها .

رفض الدكتور فكرى بذلك جميع النظريات السابقة جملة وتفصيلا ، وجعل من هذا
الرفض الاساس والسند الرئيسى لنظريته التى يرجع فيها اصل نظام المدارس الى
المساجد . وجاءت نظريته المستجدة افتراضية في معظمها ويستند فيها على ايجاد
اوجه تشابه ظاهري بين عمارة المدرسة والمسجد ، فقد اعتبر تادية فرائض الصلاة
في المدرسة مجالا لوحدة الاصل .

وقد اوضحنا ان تادية الصلاة في مبنى المدرسة الدينى لم يكن الاساس في نظام
المدرسة التعليمية ، وكان امرا طبيعيا مفروضا على اى جماعة من المسلمين . وبالتالي
لم يكن تخصيص مكان للصلاة هو الاصل في نظام او تخطيط المدرسة ، بل ولم يكن لذلك
تأثير ما في حد وتشكيل مكونات النظام المدرسى - وبالتالي فلا يوجد بها ظلة الصلاة
المعروفة في المساجد والتي يطلق عليها الدكتور فكرى اسم « بيت الصلاة » . ولم
يكن تحديد جدار القبلة بالمدرسة هو الاصل اطلاقا في نظام وتخطيط المدرسة الامر الذي
بنى عليه الدكتور فكرى نظريته . (١)

اما ما ذكره من وجود فناء متوسط بالمسجد يستمد منه الضوء والهواء ووجود
مثل ذلك الفناء بالمدرسة فهو امر طبيعى تقتضيه الاصول المعمارية لاي مبنى اقيم على مساحة
متسعة من الارض مهما كانت طبيعته وذلك لتهويته واضاءته وهى مستلزمات بديهية
وطبيعية لامكان الاقامة واستعمال ذلك المبنى فهذا التشابه لا يصلح مطلقا كدليل لوحدة
الاصل او حتى في التشابه في الغرض والوظيفة . ونرى ان ما تطرق اليه الدكتور
فكرى بعد ذلك من ربط باقى اجزاء المدرسة بجدار القبلة وبيت الصلاة هى قرائن وادلة
افتراضية مفتعلة بعيدة تماما عن الواقع وعن وظيفة المدرسة التعليمية .

ولعل أهم ما جاء ببحث الدكتور فكرى كان فيما يختص بوظائف المدرسة ، ليصل بها الى طبيعة نظام المدرسة ومصدره . فقد كان خلاصة بحثه ان المدرسة كانت مخصصة اصلا لسكنى فريق مختار من الطلاب والمدرسين واقامتهم . . . الخ ، وقد اورد العديد من الادلة التاريخية المؤيدة لذلك (١) ، ولم ينكر الدكتور فكرى ان هذه الابنية كانت فيها اماكن وقاعات للدرس سواء كانت القاعات الفرعية او الابوانات التى سبق ان اشرنا الى انها كانت تستعمل للدرس والتعليم ايضا . وبذلك اكتمل وصف طبيعة وظيفة المدرسة ومكوناتها ، كمبنى مختص للتدريس ، وسكن العلماء والطلبة . ولكن تشبع الدكتور فكرى بفكرة ارتباط المدرسة بالمسجد التى قدم لها ادلة وقرائن واهية ومرفوضة وتمسكه بذلك جعله يتعد عن المصدر الطبيعى الذى يوصله لاصل نظام المدرسة ، وهو في رأينا مساكن الشيوخ والعلماء في جميع العصور والاماكن . ومنها تطورت أنظمة المدارس الى اشكالها المعروفة التى اختلفت الى حد ما في الدول الاسلامية تحت تأثير العوامل المحلية وهو نظام مستقل عن نظام المساجد في أغراضه وفي أنظمة عمائره .

نشأة المدارس الاسلامية والنظرية الصحيحة لمصدر نظام عمائرها

استعرضنا الابحاث والنظريات السابقة القديمة والحديثة عن المدارس الاسلامية واصل نظامها ، ولاحظنا التضارب والتعارض بينها ، وكيف انها لم تنته الى رأى موحد وسليم يمكن الاطمئنان اليه ، ومهما كان من أمر هذا الاختلاف والتباين والتعارض فانه جعل باب البحث مفتوحا للمزيد من الدراسة المتخصصة في هذا المجال ، خاصة وان هناك أبحاثا مستجدة في الآثار والعمارة الاسلامية كشفت عن بعض الحقائق في مجالات لها تأثيرها على هذه الدراسات ، هذا وأن الدراسات العلمية المنظمة الهادئة واستعراض الحقائق التاريخية والمعلومات الاثرية في ضوء ما استجد من ابحاث تمكنا من الوصول الى النظرية السليمة لنشأة المدارس ومصدر عمائرها وتطوره وهو ما سنعرضه بايجاز فيما يل - والله الموفق .

خرجنا من الاستعراض السابق لنواحي النقص في هذه الابحاث والنظريات بفكرة سليمة عن طبيعة وظيفة المدرسة . ويقتضى التوصل الى أصل نظام المدارس أن نستكمل البحث والدراسة التاريخية عن نظم الدرس والتعليم واماكنها منذ صدر الاسلام حتى القرن الخامس الهجرى ، حيث بدأ ظهور المدارس السلجوقية وتبلورت أنظمة عمائرها في أشكالها المعروفة . وقد توصلنا في دراستنا الى قرائن تؤيد ارتباط المدارس منذ صدر الاسلام بسكن الشيوخ والعلماء . وانه كانت هناك دور مخصصة للتدريس منذ السنوات الاولى للإسلام .

١ - الدكتور فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها - الجزء الثانى - ص ١٥٩ - ١٦٠

وهكذا وفقنا الله سبحانه الى توضيح حقيقة علمية كانت غامضة وسببت في بعض الاحيان الخلط بين نظام المسجد ونظام الدراسة والتعليم في المدارس . فقد تبين وجود نظام مستقل للدرس والتعليم ظهر واستمر منذ السنوات الاولى للإسلام بجانب ما عرف عن حلقات الدرس التي كانت تعقد في المساجد الجامعة . وهذه الحقيقة تؤدي الى استنباط الاشكال الاولى للمباني التي استخدمت للدرس والتعليم في صدر الاسلام، وكذلك حسم والغاء النظرية القائلة باشتقاق نظام المدارس من نظام المساجد ، بناء على ان الدروس في صدر الاسلام اقتصرت أماكنها على حلقات الدرس في المساجد الجامعة .

أماكن ونظم الدرس والتعليم في صدر الاسلام

كان من النتائج المباشرة للتعاليم الإسلامية السالفة الذكر وغيرها ان انتشر الدرس والتعليم بين المسلمين منذ السنين الاولى لنشأة الاسلام ، ولم يكن هناك نظام محدد لذلك في مبدأ الامر . وتحدثنا روايات المؤرخين عن أخبار مجالس العلم وعن أمثلة متنوعة في هذا المجال بما يمكننا من تلمس السبل التي سلكها العلم والانظمة والتقاليد التي روعيت بصفة عامة .

كانت مكة والمدينة من أولى مراكز العلم وأهمها في الدولة الإسلامية . فبعد فتح مكة عين الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل ليعلم الناس دينهم الجديد . وذكر الغزالي أن جماعة من الصحابة كانوا يعلمون في مسجد قباء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (١) . كما روى ابن خلكان ان عثمان بن ربيعة كان يجلس في مسجد الرسول بالمدينة وكان يأتيه « مالك والحسن واشراف اهل المدينة » للاخذ عنه (٢) واختار كثير من العلماء عقد حلقات العلم في المساجد وخاصة المساجد الجامعة الاولى . ذلك ان المسجد في صدر الاسلام لم يكن مكاناً للصلاة فحسب بل كان يؤدي وظائف وخدمات دينية واجتماعية وعلمية وصحية وحربية وسياسية (٣) . وانتشرت حلقات العلم التي كانت تعقد في المساجد الاولى وأهمها ما كان يعقد بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة وحول الحرم الشريف بمكة المكرمة ثم في مساجد البصرة وعمرو العتيق بالفسطاط وغيرها من المساجد الجامعة الاولى في الاقطار الإسلامية .

هذا ولم تقتصر حلقات العلم والتعليم على المساجد منذ السنين الاولى للإسلام ، فقد كانت مجالس الدرس والقراءة والندوات العلمية تعقد ببعض الدور التي اشتهرت بذلك وكذلك في دور بعض العلماء المشهورين . ومن ذلك أن دار عبد الله بن مسعود عرفت باسم « دار القراء » ، وكانت من الدور الاولى المحيطة بالمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة من ناحية الشرق وادخلت في مساحة المسجد النبوي عند توسعته ، ادخل بعضها

١ - الغزالي : احياء علوم الدين - الجزء الاول - ص ٧

٢ - ابن خلكان : وفیات الاعيان ، الجزء الاول - ص ٢٥٧

٣ - رسالة المساجد في صدر الاسلام ، بحث لفضية الدكتور محمد ابو شهبه مقدم لمؤتمر رسالة المسجد ١٣٩٥ برابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة .

في زيادة الوليد في ولاية عمر بن عبد العزيز وبقيتها في زيادة المهدي (١) ، كما ذكر المقرئ خبراً « أن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجراً للمدينة مع مصعب بن عمير رضي الله عنهما وقيل بعد بدر بيسير ، فنزل دار القراء » (٢) ، يفهم من ذلك أن هذه الدار اشتهرت بالدرس والقراءة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي مكة المكرمة اتخذ الصحابي ابن عباس رضي الله عنه مكة مقراً له عقب رجوعه من ولايته على البصرة عندما انتقلت مقاليد الحكم لمعاوية بن أبي سفيان وشرع ابن عباس في إلقاء دروسه في المسجد الحرام وأحياناً في داره (٣) .

وهناك أمثلة أخرى قديمة لذلك ولكن لم يهتم المؤرخون بإبرازها ، حيث غلب عليهم الاهتمام بحلقات العلم بالمدينة ، بالمسجد النبوي الشريف لمكانته العظيمة التي لا تقارن . ولكن مما تجدر الإشارة إليه ، أن مجالس العلم بمكة المكرمة في صدر الإسلام كانت تعقد في الدور حول الكعبة المشرفة والمجاورة لها ، التي عرفت باسم المدارس . وقد استمر هذا التقليد متبعاً في العصور التالية ، حيث تجمع روايات المؤرخين على أن أبنية المدارس كانت مجاورة للحرم من الخارج . يذكر الفاسي مثلاً عن مكان المدرسة الارغونية . . . « ومنها الجانب الشمالي مدرسة بدار العجلة وهي التي على يمين الخارج من باب المسجد المعروف بباب العجلة » (٤) . ولعل في هذه الإشارة من جهة أخرى تأكيد الاستمرار في إقامة المدارس في الدور الإسلامية . وأن ذلك استمر حتى عصر المماليك ، حيث أن مؤسس هذه المدرسة الأمير ارغون الداودار أحد مماليك السلطان المنصور قلاوون (٥) . ودار العجلة من الدور القديمة التي أقيمت في مكة منذ عصورها الأولى (٦) . ونفس هذا الوضع نشأه في المدارس اليمانية الثلاثة ، التي أقامها حكام بني رسول بمكة المكرمة ، وأقدمها المدرسة المنصورية ومؤسسها السلطان عمر بن رسول الملقب بالملك المنصور وقد حكم بين عامي ٦٢٦ هـ ، ٦٤٧ هـ أما موقعها فبالقرب من باب العبرة بين المدرسة « السزنجيلية » ومدرسة « طاب الزمان » . وكذلك بني السلطان علي بن داود الملقب بالملك المجاهد مدرسة بمكة عام ٧٤٠ هـ عرفت بالمدرسة « المجاهدة » . ملاصقة للحرم الشريف يصلي بها المصلي وهو يشاهد البيت الحرام (٧) وثالث هذه المدارس المدرسة الأفضلية التي أقامها الملك الأفضل ابن الملك المجاهد ، وأبتدأ التدريس بها عام ٧٧٠ هـ . وكانت تقع في الجانب الشرقي من الحرم مقابل باب الكعبة . وكانت للتدريس على المذهب الشافعي بباب الكعبة . هذا ومكان

- ١ - اشار السهودي الى هذه الدار ضمن الدور التي ادخلت في توسعة المسجد النبوي .
- ٢ - المقرئ : الخط - الجزء الثاني ، صفحة ٣٦٢
- ٣ - عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة عن تاريخ مكة للسباعي الجزء الاول ، ص ١٠٢
- ٤ - الفاسي : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام - الجزء الاول ص ٣٧٨
- ٥ - عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة ص ٦٤
- ٦ - الأزرقي : اخبار مكة وما جاء فيها من آثار - الجزء الثاني ص ٢٥٢
- ٧ - عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة ، ص ٦٦ عن نفس كتاب الخزرجي ، الجزء الثاني - ص ١٢٦

مبنى المدرسة في الاصل دار يملكها قطب الدين بن المكرم المصري (١) . ونلاحظ كذلك استمرار اقامة المدارس في مباني الدور حتى عام ٧٧٠ هـ . وبذلك نرى أن نظام اقامة المدارس في الدور الذي عرف في مصر قسي العصر الفاطمي والايوبي ، وتطور بعد ذلك الى اقامة عمائر خاصة بالتعليم كان لا يزال متبعاً في الحجاز حتى القرن الثامن الهجري على الاقل . والملاحظ على جميع المدارس بمكة المكرمة انها كانت باستمرار في مبان مستقلة خارج الحرم الشريف قريبة منه او ملاصقة له . وبذلك فان نظام المدارس والتعليم في مكة منذ نشأته وحتى القرن الثامن كان في خارج الحرم الشريف وفي مبان مستقلة . وكانت في الغالب اصلها دور حـولت الى مدارس . (انظر المخطط الارشادي (شكل ١٥) الذي يوضح مواقع عمائر المدارس الاسلامية حول الحرم الشريف بمكة المكرمة) .

والامثلة لاستعمال الدور كمدارس او تحويلها لهذا الغرض متعددة يكاد ذلك ينطبق على جميع مدارس مكة . ولعل افصح اشارة جاءت في هذا الغرض ما ذكره الفاسي (٢) والسخاوي (٣) عن مدرسة اقامها الفسيروزي ابادي الشيرازي بمكة المكرمة سنة ٨٠٢ هـ . وهو احد المقربين للملك الاشرف ابن الملك الافضل . جاء في التعريف بها : « جعل داره التي أنشأها على الصفا مدرسة للملك صاحب اليمن » .

هذا ونشير الى نوع من ابنية الدرس والتعليم ظهر في مكة منذ أوائل العهد الاسلامي ، وهي الكتاتيب ، التي وجدت في المجتمع الاسلامي لتعليم اطفال المسلمين ، وكان منها انواع متعددة بعضها يعنى بتعليم مبادئ القراءة والكتابة وبعضها لتعليم الخط ، وأخرى معنية بتعليم القرآن الكريم . وهذه المؤسسات التعليمية كانت لها باستمرار مبان مستقلة مخصصة لها ، لا ترتبط بالحرم الشريف الا في الحالات النادرة . ولقد وجد الكتاب جنباً الى جنب مع المسجد ليسهم في نشر نور العلم والمعرفة (٤) .

فيستنتج مما سبق ان الدرس والتعليم في مكة المكرمة كان منذ السنوات الاولى للاسلام في مبان مخصصة للتعليم مستقلة عن الحرم الشريف ، وان امثلتها التي وصلت اليها اخبارها كان يدرس بها علوم الدين ، وكانت جميعها تقريبا في دور سكنية حولت الى مدارس دون ان تكون ملكا للعلماء والشيوخ . واستمر ذلك متبعاً حتى القرن الثامن الهجري على اقل تقدير ، وان ذلك الوضع استمر جنباً الى جنب مع الدروس التي كانت تعقد حلقاتها في الحرم الشريف . ويمكننا ان نميز الى حد ما الفارق بين نظم التدريس بالمدارس وبين حلقات الدرس في الحرم الشريف . فقد كانت تلك المدارس تقام بناء على رغبة منشئها ، الذي كان يحدد العلوم التي تدرس بها ويرتب لها ما يلزمها من المدرسين والطلبة ، ويوقف عليها ما يتكفل بالصرف عليها . فكان هناك نظام معين للدراسة بها ، في حين ان العلماء بحلقات الدرس بالحرم الشريف لم يتقاضوا راتباً من أى جهة كانت وكذلك كانوا لا يأخذون من الطلبة اجرا ، فكان كل عالم يلقي على طلبته

١ - الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الامين - الجزء الاول - ص ٣٧٨

٢ - الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الامين - الجزء الثاني - ص ٣٩٩

٣ - السخاوي : الضوء الاعم - الجزء العاشر ص ٨٥

٤ - عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة - ص ٥٥

العلوم التي تبجر فيها دون التقيد بمنهاج مقرر . فالعالم يقررها يريد تدريسها والطلاب يختار العلم والاستاذ الذي يلائمه . واستمر ذلك الوضع في حلقات دروس الحرم حتى القرن الثامن الهجري عندما اخذ بعض الامراء المسلمين والتجار الموسرين يقررون دروسا تدرس في المسجد الحرام ، ويدفعون أجرا معلوما لمن يقوم بالتدريس (١) .

وبالنسبة للمدينة المنورة كان نظام التعليم مماثلا تقريبا من حيث التدريس في دور مستقلة بجانب حلقات الدرس بالمسجد النبوي الشريف ، وان كان الوضع اقل وضوحا هنا نظرا لقلّة المعلومات ، حيث اقتصر الروايات التاريخية على الدور حول المسجد النبوي الشريف دون باقي دور المدينة ، وكذلك لرغبة كثير من العلماء في القاء دروسهم في الحرم النبوي استمرارا لما اتبع في صدر الاسلام . وان كان يمكن تلمس بعض مظاهر التدريس بالدور ، مثل دار « القراء » التي سبقت الإشارة إليها . ويؤيد ذلك بصفة عامة كثرة عدد المدارس التي أقيمت في العصور التالية التي تعددت اشارة المؤرخين إليها وخاصة في القرن الثامن الهجري .

نخلص مما سبق الى انه كان هناك منذ السنين الاولى للاسلام نظام للتدريس مستقل عن حلقات الدرس بالمساجد ، وان أمكنته الاولى كانت في الدور والمساكن التي تحولت الى مدارس عندما قام الحكام والامراء والموسرون بتشجيع ورعاية العلم والعلماء وتكفلوا بالصرف عليها ، وتلك الحقيقة تؤدي الى عدة نتائج هامة :-

(أولا) توضيح الاشكال الاولى لنظام المدارس عند نشأتها وهي نظم الدور السكنية التي تعتبر المصدر الذي اشتقت منه نظم المدارس وتطورت بعد ذلك الى اشكالها المعروفة .

(ثانيا) تعديل وتصحيح النظريات السابقة عن نظم المدارس والبحث عن نظم المساكن التي كانت سائدة في الدول الاسلامية التي ظهر فيها نظام المدارس عموما ، وفي الدول التي قام فيها الولاة والحكام بتشجيع العلم والعلماء ادبيا وماديا بوجه خاص ، تنحصر في ايران والشام ومصر .

(ثالثا) الفصل بين نظام المساجد ونظام المدارس منذ بداية نشأته وظهور ابنية مخصصة للدرس والتعليم .

(رابعا) من ناحية وظيفة المدرسة والغرض العلمي منها ، فقد وضح وتأكد ان المدارس مباني اقيمت لغرض الدرس والتعليم ، وكانت العلوم الدينية في معظم الاحوال هي المواد التي تدرس بتلك المباني .

هذا ونرى ان تتبع نشأة المدارس من الناحية التاريخية والتعليمية قد سبب وضوح الرؤية التي تمكن من تتبع أصل ونشأة المدارس الاسلامية ومصدر نظام عماثرها وتطورها ، وكذلك الحسم والبت في الاراء والنظريات المتعارضة .

ونرى ان مكة والمدينة كانتا مركزين رئيسيين من مراكز العلم في الدولة الاسلامية في صدر الاسلام وفي العصر الاموي وفي النصف الاول من العصر العباسي . ثم اخذ

النشاط العلمى يقل تدريجيا بعد ذلك لكثرة من رحل من علمائها الى سائر الاقطار الاسلامية لنشر العلم ورواية الحديث . وبحلول القرن الرابع الهجرى بدأ ضعف النشاط العلمى بهما واضحا ، وانتقلت مراكز العلم الى الدول الاسلامية الاخرى ولكن بعد ان استقرت وتبلورت نظم الدرس والتعليم الى حد كبير . فظهرت المباني المخصصة للتعليم في بغداد بالعراق في القرن الثالث الهجرى في دور العلم وبيوت الحكمة كما انتقلت الى مصر في عصر الفاطميين الذين عرفوا باهتمامهم بجمع الكتب وتشجيعهم للعلم والعلماء ، خاصة في خلافة العزيز بالله ووزيره يعقوب بن كلس الذى كان له مجلس من اهل العلم والعلماء يجتمعون في بيته كل اسبوع (١) ، وكان ذلك في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . وعندما ظهرت المدارس وهى ابنية انشئت للدرس والتعليم ولسكن العلماء والطلبة ، كان من الطبيعى وبتأثير النظم العلمية السائدة المستقرة ان تتخذ تلك المدارس في اول امرها انظمة الدور السكنية الموجودة في الدول الاسلامية التى اقيمت بها ، سواء كان ذلك في مكان نشأتها في ايران او عند ظهورها في الشام ومصر حيث كان ارتباط المدارس كدور لنشر العلم بنظام الدور والمساكن اعمق واقدم من عصر نشأتها ويرجع كما اسلفنا ذكره الى السنين الاولى للاسلام .

وبذلك يمكننا ان نرجح باطمئنان ان مصدر نظام المدارس الاسلامية كان متأثرا ومشتقا من نظام الدور الاسلامية ، الذى كان سائدا في الدول الاسلامية التى اقيمت فيها المباني والعناصر للمدارس ، بعد ان اكتسبت تلك العناصر الاسم الذى عرفت به . ويرجع تاريخ ذلك في ايران والعراق الى القرن الخامس الهجرى وفي الشام ومصر الى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

وقبل ان نذكر طبيعة ومكونات أنظمة الدور ، نشير الى ان ذلك الوضع والتفسير السليم فيه تصحيح لنظرية الاستاذ « كرزويل » التى اعتبر فيها ان « القاعة » ذات الايوانين بالدور الاسلامية هى وحدها مصدر نظام المدارس . الامر الذى أثار اعتراضات العلماء بخصوص اختلاف نظام القاعة المغطاة عن نظام او تخطيط الامثلة الاولى للمدارس ، والذى فسره الاستاذ كرزويل بانه تطور من شكل القاعة ، في حين أنه طبقا لما توصلنا اليه فان هناك تشابها تاما بين نظام المدارس ذات الايوانين ونظام الدور السكنية ذات الايوانين حول فناء مكشوف . بل ان التشابه موجود ايضا بين المدارس ذات الاربعة ايوانات المتعامدة حول صحن متوسط والنظام المماثل للدور ذات الاربعة ايوانات . حول فناء متوسط مكشوف ، وقد ثبت ان كلا النظامين كان موجودا في الدور الاسلامية في مصر منذ عصر الطولونيين ويبدو جليا انه استمر مستعملا في بناء الدور حتى القرن الخامس في عصر الفاطميين ، حيث نرى بعض امثله في بقايا القصر الغربى الصغير الفاطمى وتخطيط الجزء الرئيسى بالقصر عندما اضيف بعد تجديده وتعديل زخارفه الى مباني

١ - ذكر ابن خلكان ان يعقوب بن كلس كان يحب اهل العلم ويجمع عنده العلماء ورنب لنفسه مجلسا كل ليلة جمعة يقرأ فيه على الناس ويجمع عنده العلماء والفقهاء والقراء والنحاة وكان في بيته قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والادب حتى الطب (وفيات الاعيان جزء ٢ ص ٤٤٠)

مارستان قلاوون (١) الشكلان رقم ١٦، ١٧. ويظهر الاشتقاق واضحا بمقارنة مخططات بعض الدور الطولونية اشكال ١٨، ١٩، ٢٠ برسومات مخططات المدرسة الكاملة وجزء المدرسة الصالحية شكلي ٤، ٢ بمخططات الدور ذات الايوانين وكذا بمقارنة مخطط الدار ذات الاربعة ايوانات بمخطط مدرسة الناصر محمد ذات الاربعة ايوانات رقم ٢١ - وتؤيد هذه المقارنة الاشتقاق المباشر لكل من نظامي المدارس من الانظمة المماثلة للدور السكنية السائدة في ذلك الحين .

وبذلك تتضح لنا الصورة الكاملة للمصدر الذي اشتق منه نظام المدارس بنوعيه وتسقط الاعتراضات التي سبق ان اثارها الدكتور فكري على نظرية اشتقاق نظام المدارس من الدور السكنية التي اضعفها اختيار الاستاذ « كرزويل » لنظام « القاعة » . وهي جزء مجدد صغير من نظام الدور ، ولم يوجد في الدور الاسلامية في النصف الاول من القرن السادس الهجري ، الامر الذي اوجد مجالا آخر لاعتراض الدكتور فكري على نظرية اشتقاق المدارس من الدور ، حيث حاول التشكيك في تاريخ القاعة بجانب عدم وجود امثلة اخرى باقية لمثل هذه القاعات من العصر الفاطمي في حين تتوفر امثلة الدور الاسلامية ذات الايوانين والتي عثر على بقايا واضحة لكثير منها في الحفريات بجنوب القاهرة والتي عرفت باسم حفريات الفسطاط .

هذا وتذكر المراجع التاريخية ما يؤيد ما ذهبنا اليه من علاقة المدارس الوثيقة بمباني الدور . فقد تكرر في روايات المؤرخين ذكر الدور التي حولت الى مدارس . وقد ذكر الاستاذ « كرزويل » عندما نشر نظريته السابقة الذكر امثلة لثلاث عشرة دارا حولت الى مدارس ، منها ستة في مصر وستة في دمشق وواحدة في حلب وقد اندثرت جميعها كما ذكر مثالين بمصر وهي المدرسة الغنايمية التي كانت دارا اقيمت في سنة ٧٧٤ وحولت الى مدرسة حوالي ٨٢٤ ومدرسة خوشقدم الاحمدى سنة ٧٦٨ هـ التي كانت دارا لاحد الامراء (٢) . وقد ذكر الدكتور فكري رغم اعتراضه على نظرية كرزويل ، ان عدد الدور التي حولت الى مدارس اكثر من ذلك فعلا ، وان هناك حوالي عشرين مثالا لذلك في دمشق وحدها (٣) .

ونرى ان هذه الروايات التاريخية تؤيد وتدعم ما ذهبنا اليه ، وان كانت الصلة بين المدرسة وابنية الدرس والتعليم وبين الدور اقدم عهدا واثق من العلاقة المباشرة الناتجة من تحويل الدور والمسكن الى مدارس ، وقد اسلفنا ذكر هذه العلاقة منذ السنين الاولى للإسلام . وتدل عملية تحويل الدور الى مدارس على استمرار تلك العلاقة حتى القرن السادس في عصر الايوبيين عندما قام صلاح الدين الايوبي وحده بإنشاء ثلاث عشرة مدرسة كان بعضها دورا حولت الى مدارس . وهذا وقد انتشر نظام المدارس المتأثرة بنظام الدور في عصر الايوبيين وما بعده في مصر والشام والحجاز وان كانت امثله الاولى في الحجاز

١ - الدكتور عباس حلمي : تطور المسكن المصري الاسلامي من الفتح العربي الى العثماني ص ١٥٤ - ١٥٥

٢ - كرزويل : العمارة الاسلامية في مصر - الجزء الثاني - ص ١٢٩ - ١٣٠

٣ - دكتور احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها الجزء الثاني ص ١٧٤

لم تيسر معرفتها بوضوح لاندثار ابنتها . الا انه يمكننا من الوصف التاريخي ان نتلمس تأثيرها بنظام الدور . فقد ذكر السهمودي ان الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اشترى دار ابي ايوب بالمدينة المنورة وبناها مدرسة للمذاهب الاربعة ووقف عليها اوقافا بدياروبدمشق ، وجاء في وصفه المختصر للمدرسة انها كانت « . . قاعتان كبيرى وصغرى ، وفي ايوان الصغرى الغربى خزانة صغيرة جدا » (١) فهذه المدرسة كانت للمذاهب الاربعة ، ولكنها لم تكن على نظام الايوانات المتقاطعة ، وانما كانت غالباً مكونة من وحدتين كل منهما عبارة عن قاعة ذات ايوانين ، أى انها اشبه ما تكون بنظام المدرسة الصالحية ، ويغلب على الظن ان نظام المدرسة كان اشبه ما يكون بنظام المدارس السكنية المعروفة .

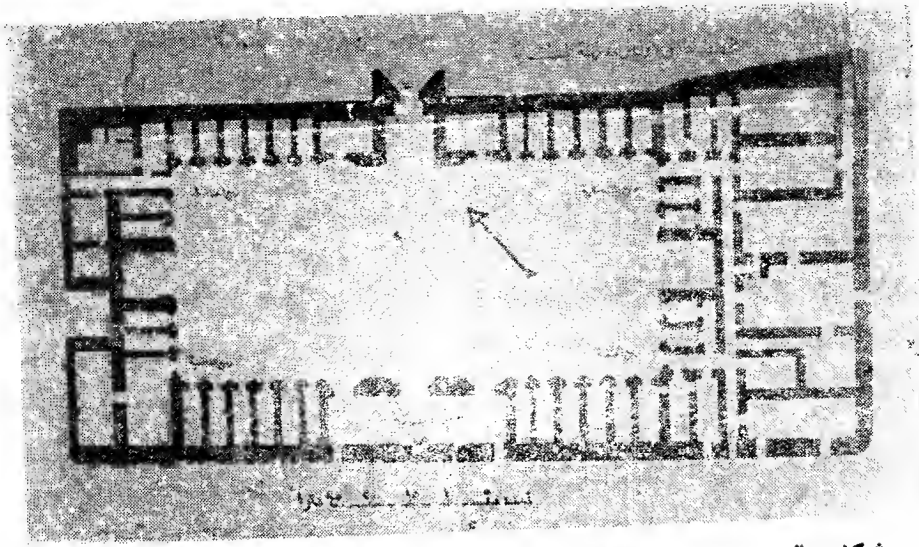
واخيراً نختم هذا البحث الموجز بتوضيح اضافي لوظيفة المدرسة . فكما اسلفنا ذكره ، كانت المدرسة مبنى مخصصاً اقيم لغرض تدريس العلوم ، التى كانت في معظمها العلوم الدينية ، فكانت الصلاة والشعائر الدينية بطبيعة الحال يحافظ الجميع على ادائها بانتظام وعلى اكمل وجه . واستتبع ذلك توفير ما يلزم لصلاة جميع الطلبة والدارسين والاساتذة المقيمين بالمدرسة وذلك بتخصيص مكان لائق ذي سعة مناسبة يزود بمحراب لتحديد اتجاه القبلة ، ومنبر لصلاة الجمعة . ولكن ذلك جميعه كان بمثابة استكمال لمطلبات المدرسة الدينية التى تقيم بها مجموعات من الطلبة والاساتذة المسلمين ، ولكن لم يكن ذلك بغرض اعداد المدرسة كمسجد للجمهور خارج المدرسة . ويظهر هذا الفارق المحدد بين وظيفة المدرسة الاساسية ومهمة المسجد ، وان اشترك معها المسجد في اداء الخدمات التعليمية ضمن رسالته الاجتماعية . وكانت المدارس الاولى تكتفى باعداد مكان محدد صغير كمسجد للمدرسة يتلاءم مع عدد الطلبة المحدود في اول الامر ويتناسب مع مخصصات المدرسة المالية .

هذا ومع انتشار المدارس وازدياد النشاط العلمى واهتمام الولاة والامراء بتشجيع العلم والتدريس والسخاء بالاموال في هذا السبيل ازداد وتنوع ما يدرس بها من العلوم ، وتضاعف عدد الطلبة والدارسين واتسعت وعظمت عمائر المدارس وتعددت قاعات الدرس وغرف الطلبة وتطلب توفير مستلزمات تادية الصلاة لهذه المجامع من الطلبة اعداد مساحات اكبر للصلاة وزودت بالماذن المرتفعة ، فقرب الشبه بينها وبين المساجد خصوصاً وأنها تساعد احياناً في استيعاب المصلين في الاحياء المزدهرة عندما تضيق بهم المساجد في صلاة الجمعة ، مما اثار شبهة انتماء نظام المدرسة الى نظام المسجد ، تأثراً بالاشكال المعمارية الاخيرة التى تطورت اليها المدرسة عندما ارتقت وعظمت عمائرها . ولكن المدارس الاسلامية في جميع مراحلها لم تتخل عن وظيفتها الرئيسية التى كانت دائماً

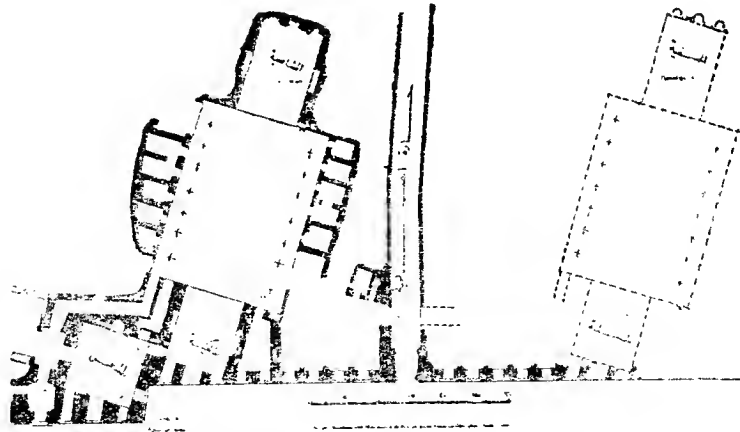
الغرض الاساسى في مهمتها ونظام عمارتها ، وليس ادل على ذلك مما جاء في نظام التدريس الذى وضع لمدرسة السلطان حسن بالقاهرة التى وصلت الى ارقى مراحل تطور المدارس الاسلامية سواء من ناحية تنوع ما تؤديه من خدمات ، او من عظمة عمارة مبانيها والقدرة الفنية المعمارية التى وصلت اليها مخططاتها ، وروعة نقوشها وزخارفها . وبجانب ذلك جميعه كانت الناحية التعليمية فيها هى الغرض الرئيسى للمدرسة ، ولتقت الانظار باتساع المجال العلمى ودقة النظام وتنوع ما تؤديه من خدمات ، فقد قرر السلطان حسن لهذه المدارس مدرسين ومراقبين وعين لهم مرتبات نثبتها فيما يلى :

« قرر لكل مذهب من المذاهب الاربعة شيخا ومائة طالب من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة معيدون وعين معه ثلاثين طالبا عهد الى بعضهم بعمل الملاحظة . وعين مدرسا للحديث النبوى ومقرئا لقراءة الحديث وثلاثين طالبا يحضرون يوميا ، عهد الى بعضهم بوظيفة النقيب ، والى الآخر بوظيفة داع للسلطان عقب الدروس . ثم عين بالايوان القبلى بالجامع شيخا عاما مفتيا ورتب معه مقرئا مجيدا للقرآن ، على ان يحضر اربعة ايام من كل اسبوع منها يوم الجمعة . فيقرأ المقرئ ما تيسر من القرآن وما تيسر من الحديث الشريف . . . وعين مدرسا حافظا لكتاب الله عالما بالقراءات السبع ليجلس كل يوم ما بين صلاة الصبح والزوال بالايوان القبلى ، وقارئا آخر يجلس معه ليلقن القرآن لمن يحضر عنده ، ثم عين اثنين من المراقبين لمراقبة الحضور والغياب احدهما بالليل والاخر بالنهار . واعد مكتبة عين لها امينا والحق بالمدرسة مكتبين بمدرسيهما لتعليم الانتماء القرآن والخط وقرر لهم الكسوة والطعام . فكان اذا اتم اليتم القرآن حفظا يعطى خمسين درهما ويمنح مؤدبه خمسين درهما مكافاة له . وعين طبيبين مسلمين احدهما باطنى والاخر للعيون (١) .

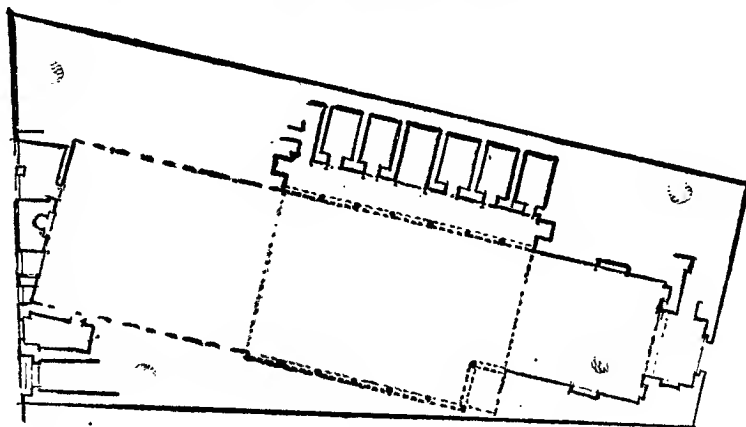
وبذلك كانت المدارس الاسلامية في نشأتها وتطورها وارتقاؤها خير تعبير عما وصلت اليه العلوم والعمارة والفنون والحضارة الاسلامية عموما من رقى وازدهار



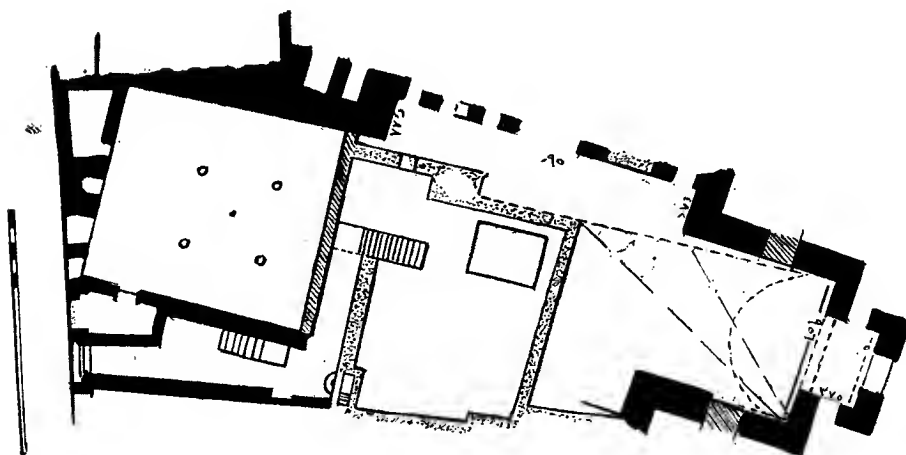
شكل رقم (١) مخطط المدرسة المستنصرية في بغداد - ٦٣١ هـ
(عن ناجي معروف)



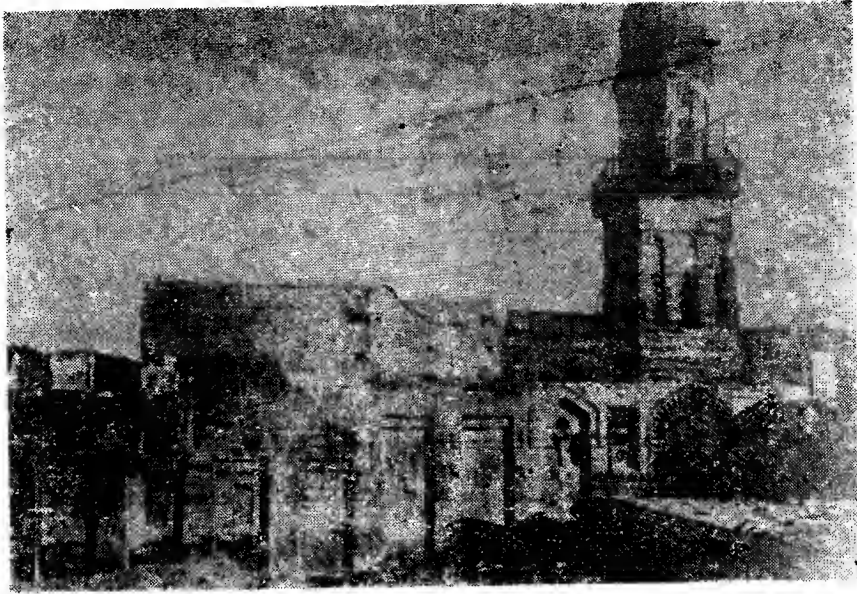
شكل (٢) مخطط المدرسة الصالحة بالقاهرة - ٦٤١ هـ (عن « كرينزويل »)



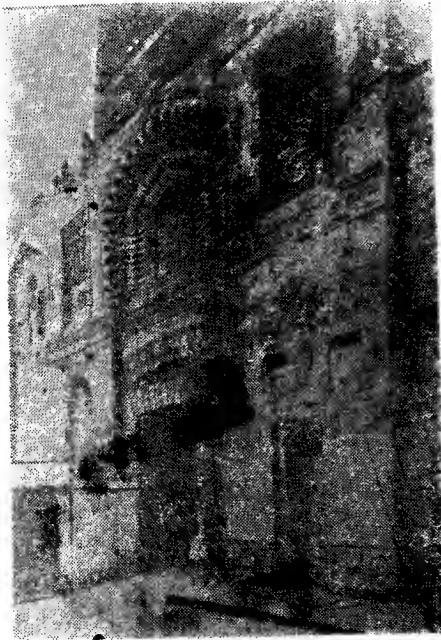
شكل رقم (٣) - مخطط المدرسة الكاملية بالقاهرة - عن لجنة حفظ الآثار العربية
(محاولة إعادة مخطط المدرسة لحالته الاصلية)



شكل رقم (٤) - مخطط المدرسة الكاملية بالقاهرة (الاجزاء المتبقية) - عن «كريزويل»
الحوائط الداخلية مبان حديثة لا علاقة لها بالمدرسة (موضحة بالنقط الخفيفة)



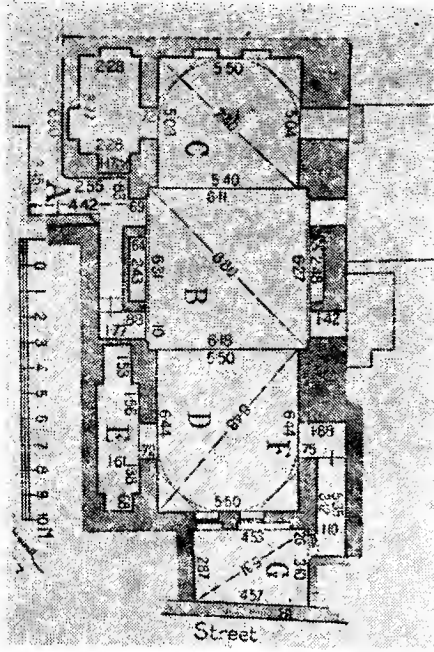
شكل رقم (٥) - الواجهة الخارجية للمدرسة الصالحية (الاجزاء المتبقية)
المدخل الرئيسى - المئذنة - القسم الشرقى للمذهبين الشافعى والمالكي



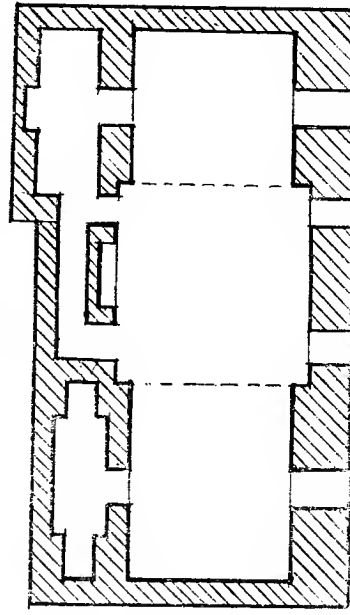
شكل رقم (٧) - واجهة المدخل
الرئيسى الذى يتوسط قسمى المدرسة



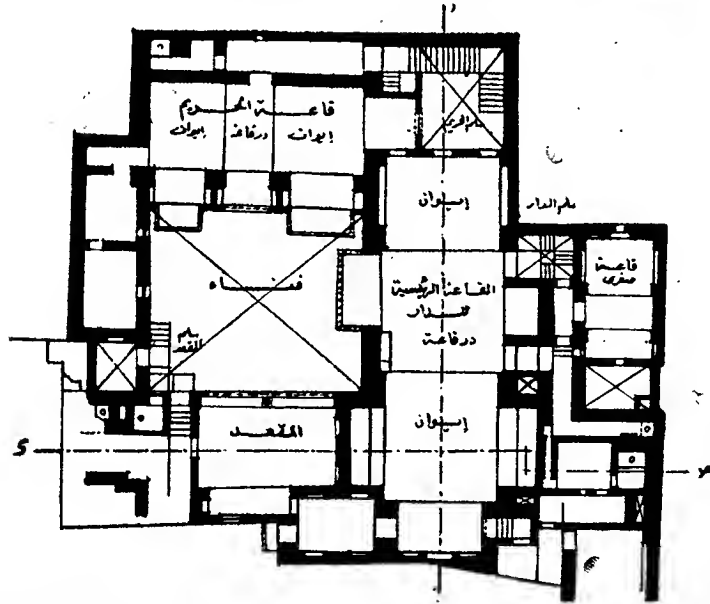
شكل رقم (٦) - واجهة ايوان المالكية
(البحرى) المطلة على الفناء الداخلى



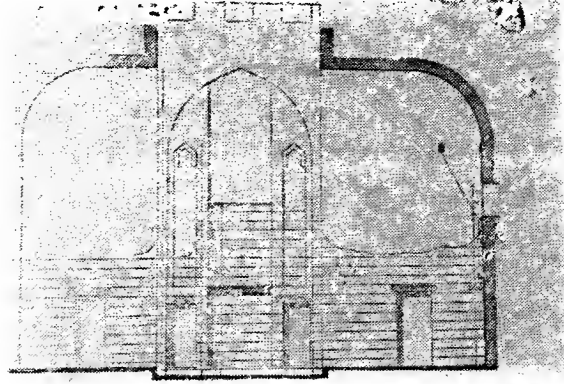
شكل رقم (٩) مخطط قاعة الدردير
الذي جهزه « كريزويل » - والذي
اتضح صحته بمراجعته على المباني
القائمة بالطبيعة



شكل رقم (٨) - مخطط قاعة الدردير -
نشره د. فكري ويلاحظ به اغلاق
المداخل وتغيير بعض معالمه وذلك
بمقارنته بمخطط القاعة رقم (٩) المقابل



شكل رقم (١٠) - مخطط لنموذج الدار الاسلامية الذي كان سائدا في العصر المملوكي
والذي احتفظت قاعاته بأشكالها السابقة تقريبا في العصر الايوبي وأواخر العصر الفاطمي



شكل رقم (١١) - رسم لقطاع (نظرى) في قاعة الدردير - يوضح المنظر الداخلى
للايوانين المتقابلين والدرقاعة بينهما (عند كريزويل)



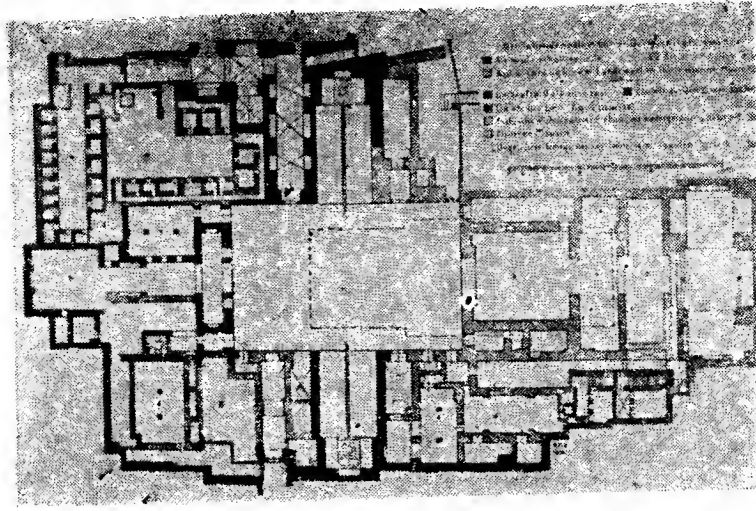
شكل رقم (١٢) الافريز الخشبي المثبت بجدران القاعة من الداخل - ونقوشه وزخارفه
المحفورة من الطراز الفاطمى المعروف (صوت اثناء الدراسة والمراجعة بالطبيعة)



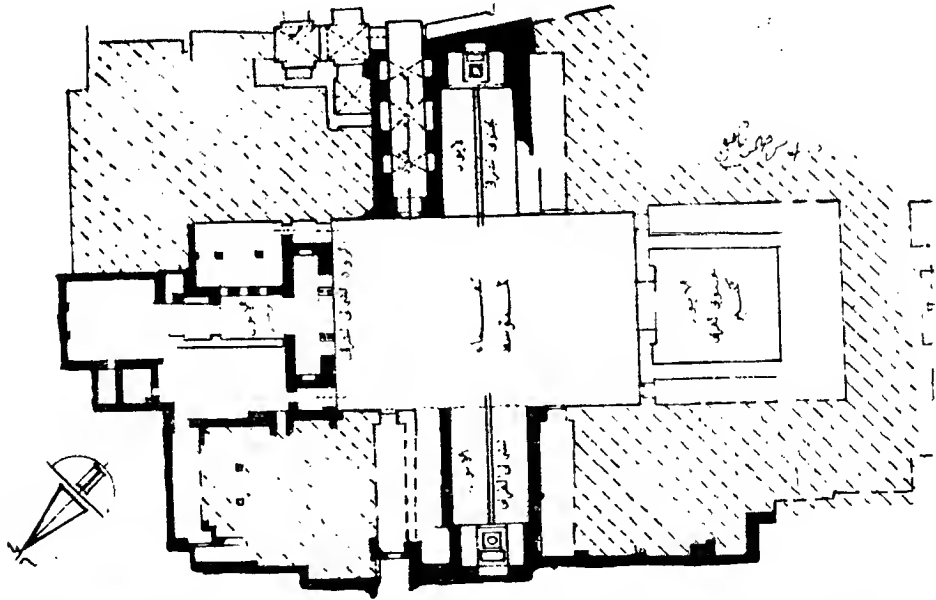
شكل رقم (١٤) - عقود الحليات
بالحوئط الجانبية للقاعة - من الطراز
الفاطمى المعروف .



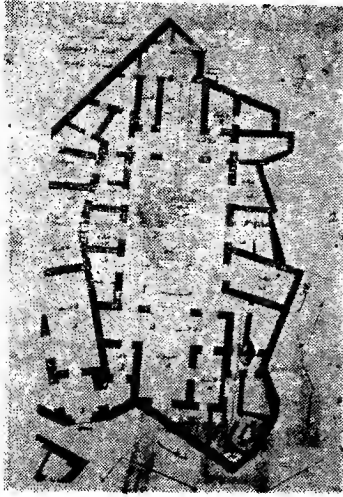
شكل رقم (١٣) - منظر قبو الايوان
البحرى من داخل القاعة - والسقف
الظاهر بالصورة من أخشاب
مستجدة حديثة



شكل رقم (١٦) مخطط مجموعة المباني لمارستان قلاوون (عن هرتزفيلد) - والذي أقيم على نفس جدران قصر «ست الملك» الفاطمي - وموضح بالتخطيط المباني حسب فترات إقامتها



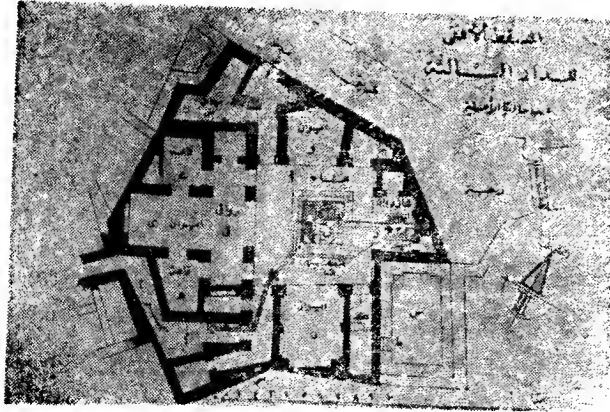
شكل رقم (١٧) مخطط الجزء المتوسط الرئيسي لقصر «ست الملك» الفاطمي - ويظهر فيه نظام الايوانات الاربعة المتعامدة حول الفناء المتوسط - وهو المصدر الذي اشتق منه هذا النظام في المدارس - ويلاحظ التشابه ووحدة الاصل بمقارنته بما اتبع فيما بعد بمخطط مدرسة الناصر محمد بالقاهرة (شكل رقم ٢١)



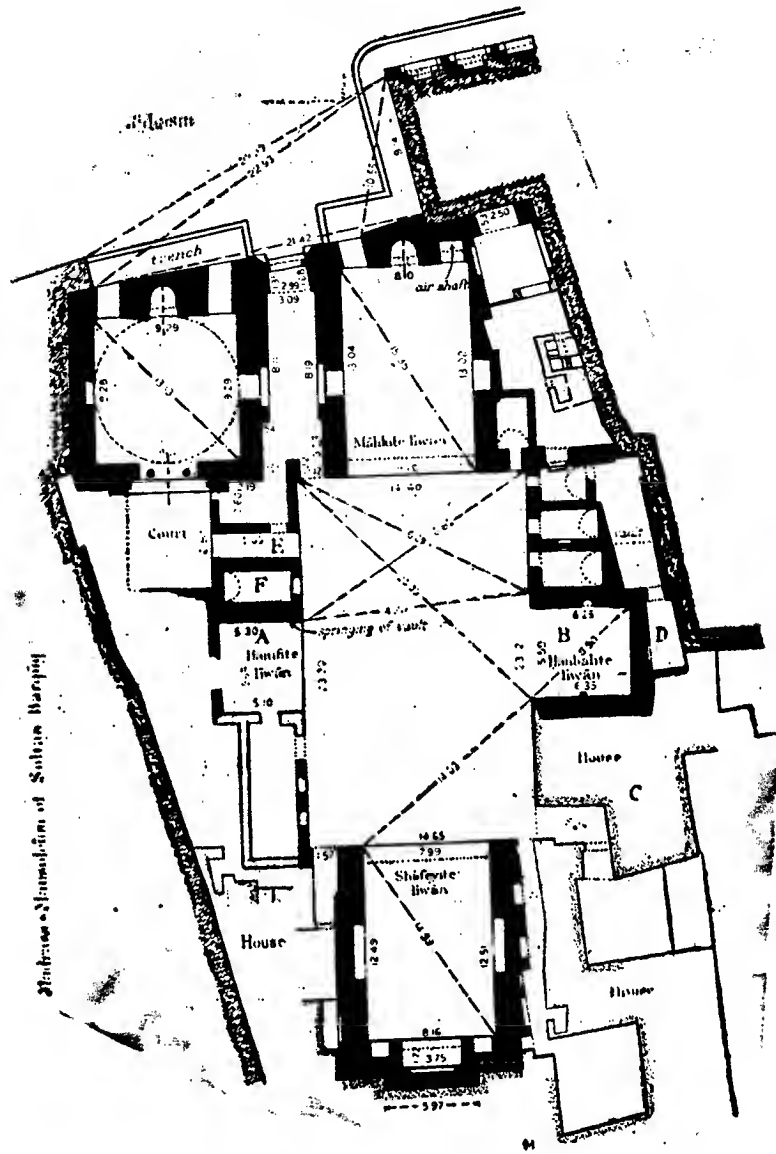
شكل (١٩) مخطط الدار السادسة من الدور الإسلامية الأولى بحفريات الفسطاط - وهي على نظام الايوانين المتقابلين حول الفناء المتوسط ويلاحظ التشابه ووحدة الاصل في نظام المدارس ذات الايوانين ، بمقارنتها بمخطط المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية بالقاهرة .



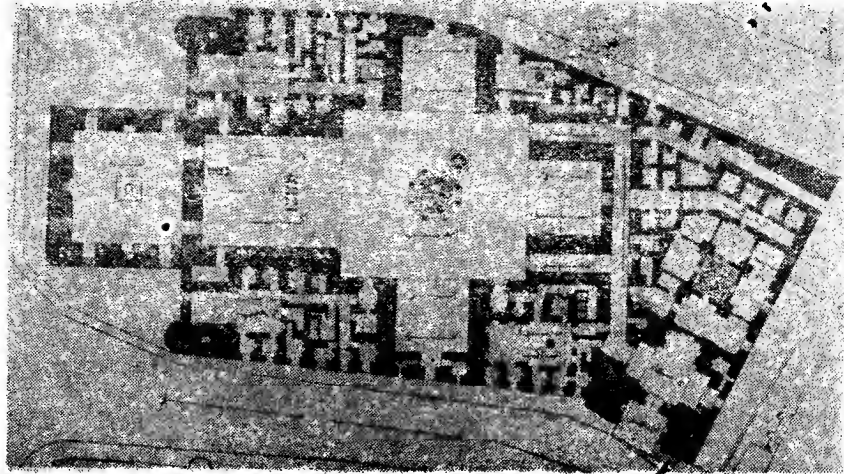
شكل (١٨) لمخطط الدار الثانية عشرة من الدور الإسلامية الأولى بحفريات الفسطاط ، والتي كان لي شرف العثور عليها وتجهيز مخططها من الطبيعة وتحديد تاريخها - وهي على نظام الايوانين المتقابلين حول الفناء المتوسط ويرجع استمراره طوال العصر الفاطمي



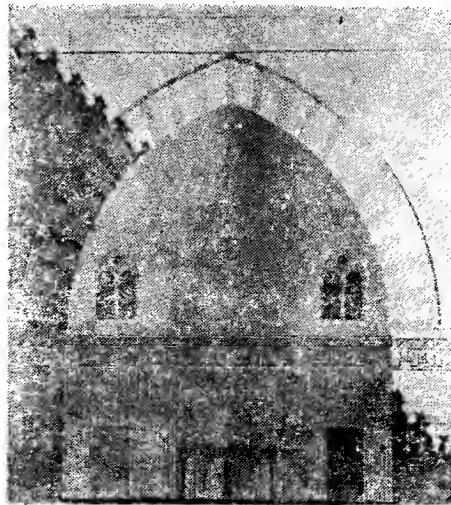
شكل رقم (٢٠) - مخطط الدار الثالثة من الدور الإسلامية الأولى بحفريات الفسطاط - وهي على نظام الاربعة ايوانات المتعامدة حول الفناء المتوسط، الذي اتبع بعد ذلك في المدارس الإسلامية على نفس النظام - يراجع مخطط مدرسة الناصر محمد (شكل رقم - ٢١)



شكل رقم (٢١) - مخطط مدرسة الناصر محمد بالقاهرة ، على نظام الاربعة ايوانات المتعامدة ، المخصصة لتدريس المذاهب الاربعة - ويلاحظ وحدة الاصل بمقارنته بمخطط الدار الثالثة الطولونية (شكل رقم ٢٠) - وبمخطط الجزء الرئيسي بقصر « ست الملك » الفاطمي (شكل - ١٧)



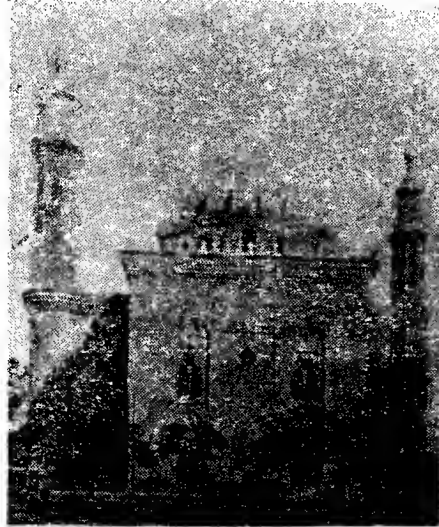
شكل رقم (٢٢) - مخطط مدرسة السلطان حسن - بالازكان غرف الطلبة وقاعات
الدروس للمدارس على المذاهب الاربعة ، وفي الوسط الاربعة ايوانات الرئيسية للمدرسة
حول الصحن .



شكل رقم (٢٣) - واجهة الايوان الكبير (الشرقي) المطلة على الصحن



شكل رقم (٢٤) - منظور داخلي
• للصحن والايوانات



شكل رقم (٢٥) - منظر خارجي
• للمدرسة - الواجهة الشرقية المطلة
• على الميدان